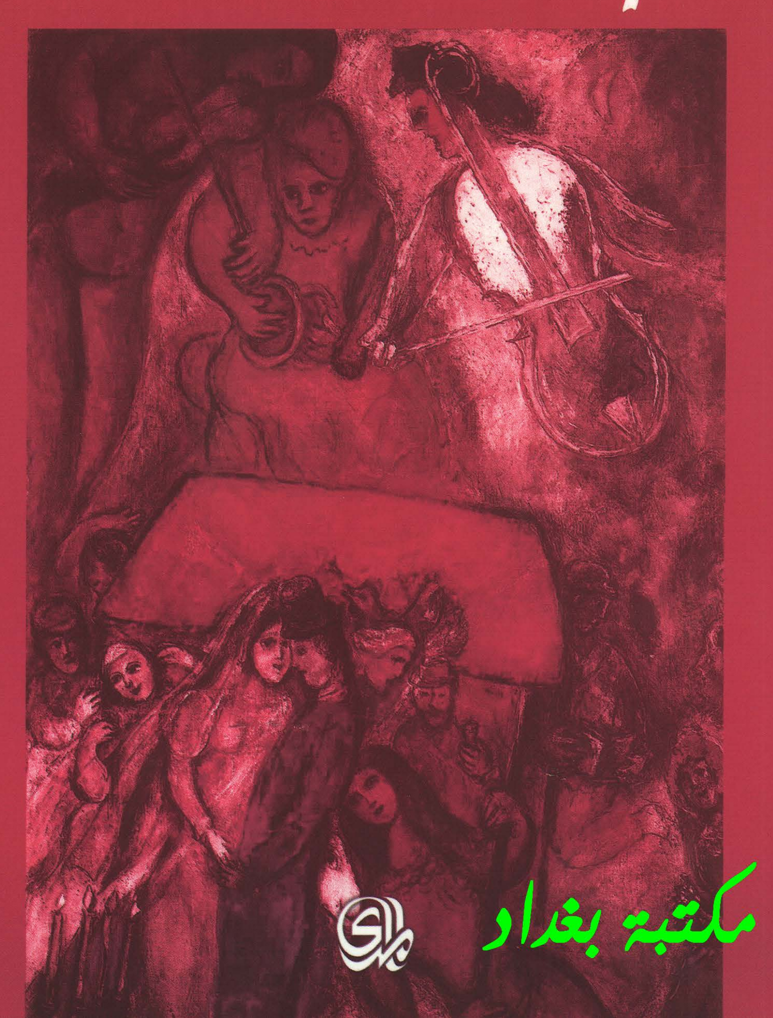
صادق جلال العظم

في الحب والحب العذري





المؤلف: صادق جلال العظم
عنوان الكتاب: في الحب والحب والعذري
ترجمة: سعدي يوسف
تصميم الغلاف: رولا ماجد
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: 1999
الطبعة الثالثة: 2014



للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي ابو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول
www.daralmada.com info@daralmada.com
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

صادق جلال العظم

في الحب والحب العذري

ترجمة : سعدي يوسف




https://telegram.me/maktabatbaghdad

The weight of this sad time we must obey,
Speak what we feel, not what we ought to say.
The oldest hath borne most: we that are young
Shall never see so much, nor live so long."

King Lear


https://telegram.me/maktabatbaghdad

تمهيد

من المتعارف عليه أن يبدأ الباحث في مثل هذه الموضوعات الدقيقة بتعريف أولي للظاهرة التي ينوي معالجتها ليمدَّ القارىء بفكرة مبدئية وتقريبية، على أقل تقدير، عن الموضوع الذي تدور حوله دراسته، وتترتب حوله الآراء والتصورات المتشعبة التي يتفتق عنها بحثه في سيره وتقدمه. ولا أجد ضرورة للقول بأنه حين يكون موضوع الدراسة ظاهرة الحب نفسها يتعذر الابتداء على هذا النحو بسبب تعذر الحصول على تعريف مقبول ومتكامل لها.

وليس بخافٍ على أحد أن الفلاسفة والمفكرين درسوا الحب وتأملوا طبيعته منذ أقدم العصور، وعالجوه من جميع وجوهه وعلى كافة مستوياته، ابتداء بالحب الجنسي العادي وانتهاء بمستوى الحب الصوفي للذات الالهية مروراً بمحبة الانسانية جمعاء ومحبة الحقيقة والجمال والمثل العليا وغيرها من الموضوعات التي ربطها الفلاسفة بعاطفة الحب وأدخلوها في صلب فلسفتهم ونظراتهم إلى الكون والحياة. ولكن ما من مفكر كبير تطرق إلى دراسة ظاهرة الحب ظن أنّ باستطاعته أن يضع تحديداً دقيقاً جامعاً مانعاً يعبر عن ماهيتها مرة واحدة وبصورة نهائية فيشمل بذلك جميع تجلياتها وجوانبها. والحق يقال إن من عرف الحب بالتجربة والمعاناة

فهو بغنى عن كل التعريفات الفلسفية والتحديدات النظرية لماهيته مهما دقت في عبارتها واتسعت في شمولها، كما أن من حرم هذه النعمة، بما فيها من مرارة وخيبة، لن تجديه النظريات المجردة نفعاً ولن تزيده الشروح الفلسفية علماً بطبيعة الحب. لأن العلم به قائم على التجربة الحية والمعاناة الوجدانية الشخصية المباشرة. وقد قال الإمام ابن حزم القول الفصل في هذا الموضوع حين كتب في رسالته المشهورة عن الحب، "دقّتْ معانيه لجلالتها عن أن توصف، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة".[١]

لكن صدق هذا الرأي ينبغي ألا يعني أننا سنضطر إلى الدخول في ثنايا هذه الدراسة بدون أدنى محاولة لتكوين فكرة شبه واضحة عن النواحي والوجوه التي سنهتم بها في ظاهرة الحب. فإذا كان ابتكار تعريف مقبول وشامل لظاهرة الحب هو من باب المستحيل فإن ذلك لا يعني بالضرورة أننا عاجزون عن ذكر بعض خصائصها لنبين، بشيء من الوضوح، نواحي الحب التي سنركز عليها اهتمامنا في هذا البحث. غير أنه يجب ألا ننزلق في محاولات للتدقيق الصارم في أمور لا تعطي نفسها لمن يتوخى فيها هذا النوع من الدقة والتحديد، ولا تطاوع إلا من كان مستعداً لتقبّلها على ما فيها من غموضٍ وإبهامٍ.

١) الحب الذي يعنيني، بصورة رئيسية، في هذه الدراسة ليس حب البحث عن الحقيقة المجردة أو حب المثل الافلاطونية السرمدية، كما أنه ليس حب الوطن أو المال، أو حب الأخ لأخيه أو الأم لولدها مع ما بين هذه الأنواع من المحبة من صلات القربى. بدأت على هذا النحو السلبي

---

(١) "طوق الحمامة" ، تحقيق الاستاذ حسن كامل الصيرفي ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص٥

في تضييق نطاق الموضوع الذي أريد معالجته لأبين أن كلمة "حب" ليست إسماً علَمَاً دلالته جوهر فرد أو ماهية واحدة لا تتغير.

تشير هذه الكلمة المجردة، في الواقع، إلى أطياف من المشاعر والأحاسيس والانفعالات المتقاربة المتشابهة المترابطة ترابطاً عضوياً في النفس الإنسانية، ومن العبث البحث عن ماهية واحدة تكمن خلف تكاثرها وتعددها ووجودها.

٢) على صعيد الإيجاب، الحب الذي يهمّنا في هذا البحث هو الشهوة والحاجة والنزوع والميل إلى امتلاك المحبوب، بصورة من الصور، والاتحاد به بغية إشباع هذا النهم، وتحقيق الشعور بالاكتفاء والرضا، والتغلب على نقص كان يضايقنا ويقضّ مضجعنا فلا نعرف سبيلاً إلى العيش الهنيء بدونه وبدون البحث المستمر عمّا يسدُّه ويسكته ويفي بحاجاته ومتطلباته. ويرتبط هذا الحب، بالنسبة إلينا ارتباطاً مباشراً وأساسياً وعضوياً بالشهوة الجنسية في الإنسان وبسعيه لارضائها. ودرءاً لأي التباس قد ينتج عن هذا الكلام أسرِعُ لأبين أنني لا أريد التوحيد بين الحب وبين الرغبة الجنسية البحت، أو أن أنظر إلى الحب على أنه ليس إلا ظاهرة محض جنسية أو حاجة عضوية تتطلب نوعاً من التفريغ لطاقاتها مثلها في ذلك كمثل الجوع والعطش أو أي وظيفة فيزيولوجية أخرى.

لا شك أن ظاهرة الحب أشد تعقيداً بكثير من أن تسمح، لمن يريد فهمها، بتبسيطها إلى هذا الحد. فإذا كانت الرغبة الجنسية الشرط اللازم للحب، كما نفهمه، فهي بدون ريب ليست الشرط الكافي لبزوغه وازدهاره في قلب الانسان. وليس أدل على ذلك من أن الرغبة الجنسية

بحد ذاتها لا تطلب إلا تفريغ طاقة معينة، أو مجرد الإشباع لازالة توتر عضوي متراكم في الجسم بغض النظر عن طبيعة الموضوع الجنسي الذي يحقق هذه الغاية. أي تكون جميع الموضوعات الجنسية، على مستوى الرغبة المحض، على قدم من المساواة مادامت قادرة على إزالة التوتر المتراكم. بينما نجد، من ناحية أخرى، أن الإنسان العاشق حقاً لا يحبّ أياً كان أو كيفما اتفق بل يصطفي المحبوب عن بقية الاشخاص ليركز عليه أحاسيسه وعواطفه وغرامه كما لو كان هو الشخص الوحيد في الكون الذي بإمكانه أن يفي بمتطلبات هواه وحبه دون غيره من بقية الكائنات. أي أن الحب يُميِّز وينتقي ويُفرِّق بخلاف الرغبة الجنسية المحض التي تعتبر جميع الموضوعات الجنسية سواء بسواء مادامت تزيل توترها وتخفف من حدة هياجها. وعلى سبيل المثال نرى أن الرجل العاشق يضرب صفحاً، في فترة دوام عشقه، عن مفاتن النساء ومحاسنهن ولا يعيرهن كثيراً من الاهتمام العاطفي أو الحماسة الغرامية بسبب شعوره بالاكتفاء بحبيبته. أي انه يكتسب نوعاً من المناعة ضد غيرها من النساء على الرغم من أن كلهّن صالحات لإشباع الرغبة الجنسية المحض. كذلك نجد أن المرأة (وأعني المرأة المتحررة والمعافاة نفسياً واجتماعياً) قد تشعر بالانجذاب الجنسي البحت إلى عدد من الرجال بينما لا ينصبّ حبها، في أي فترة معينة، إلاّ على رجل واحد دون سواه من الرجال، أو قد تكون صاحبة صلات جنسية عديدة في حياتها ولكنها لم تحب حقاً إلا رجلاً أو رجلين ممن عرفتهم طول حياتها.

تؤدي التفرقة التي بينتها بين الحب والرغبة الجنسية المحض إلى نتيجة مهمة هي أن الإنسان الذي يعاني من الكبت المستمر والحرمان

الجنسي الطويل عاجز، في الحقيقة، عن التمييز بين حالات الشعور بمجرد الانجذاب الجنسي والميل إلى اشباع رغبته فحسب، وبين الحب باعتباره حالة تتخطى حالة الانجذاب الأولى. وكثيراً ما يقع هذا الشخص في هيام وحب أول إنسان يبدي نحوه أي اهتمام عاطفي أو ميل غرامي حتى لو كان ذلك من باب المصادفة أو المداعبة العابرة. لكن الحقيقة هي أن ما يظنه هو هياماً وحباً ليس إلا رغبة مكبوتة كانت ستشعره بنفس الوله والهيام نحو أي شخص آخر يعترض طريقه على النحو المذكور. إن الباعث على حالته ليس الحب، وهو لم يبلغ مرتبته بعد، بل الرغبات المكبوتة والمحرومة التي رأت فجأة بعضاً من الأمل، مهما كان ضئيلاً، للتنفيس عن ضيقها وحصرها، وهي بطبيعتها لا تهتم بالتمييز بين الموضوعات الجنسية التي تتوق إليها، كما يفترض في الحب أن يفعل. وقد عبر توفيق الحكيم عن هذه الحقيقة حين كتب:

"شبعت من الأجساد . . . شبعت من الأجساد . . . هذه الصيحة انطلقت من فمي يوماً . . . كما انطلقت من فم كل فنان في مونمارتر . أرأيت كيف أن مونمارتر هي في حـقـيـقـتـهـا مملكة الروح لا مملكة المادة ."

بعبارة أخرى، يزدهر الحب بعد العبور بمرحلة الانجذاب الجنسي وتخطّيها الى ما هو أهم وأرفع وأكثر تعقيداً، ولا حياة له على حساب رغبات الجسد أو بالرغم عنها أو باتجاه مضاد لاتجاهها أو نتيجة لكبتها وقمعها. يأتي الحب الناضج دوماً بعد المرور بها وباكتفائها. نحن لا ننتظر من الإنسان الذي يعاني الجوع الشديد أن يميز بين أنواع المآكل

والمشارب، وأن يفرق بين ما يتفق منها مع ذوقه السليم والرفيع وما لا يتفق، ولا نتوقع منه أن يكون عفيف النفس في إطعام نفسه، مترفعاً عن الابتذال والجموح في تناول ما يجده أمامه، لأن من يعاني مما يعانيه يجد كل ما من شأنه أن يسد رمقه مرغوباً وشهياً ومحبباً إلى نفسه مادام يشبعه ويهدئه.

نستخلص إذن أن الحب الذي يعنينا في هذه الدراسة هو حالة عاطفية مركبة تشمل كيان الإنسان بكامله جسداً وعقلاً وروحاً، وتمتزج فيه عوامل عديدة مثل اندفاع الشهوة والانفعال العاطفي والهوى والعطف والتجاوب والتعاطف والمودة والنزوع نحو التضحية في سبيل مصلحة المحبوب وهنائه وسعادته. ويرتبط الإنسان من خلال هذه العاطفة بعلاقات معقدة مع غيره من الناس تختلف طبيعتها من شخص إلى شخص وتتنوع وفقاً لأنفس المحبين وشخصياتهم ووفقاً للمكان والزمان والعصر الذي يجدون أنفسهم فيه. عبرً المسرحي اليوناني القديم سوفوكليس عن حقيقة الحب المركبة بقوله:

"الحب ليس وحده الحب .
ولكن اسمه يخفي في ثناياه أسماء أخرى متعددة ،
إنه الموت والقوة التي لا تحول ولا تزول ،
إنه الشهوة المحض ، الجنون العاصف والنواح ."(٢)

٣) من خصائص الحب التي ينبغي ذكرها كونه انفعالا تلقائياً وعفوياً بالنسبة لمصدره وبواعثه، يجيش في قلب الانسان بدون تكلف أو جهد

---

(٢) M.M. Hunt, The Natural History of Love, Grove Press, New York, 1959. ص ٤١

خاص. لنضرب مثلاً بسيطاً على ذلك: صديق لنا يعشق الفتاة الفلانية. حين نحاول تعليل حالته العاطفية نبحث عن الأسباب النفسية والاجتماعية والجمالية، وربما الاقتصادية، التي نعتقد أنها كافية لتفسير عشقه لها وكلفه بها. ولكننا نعلم علم اليقين أنه بالرغم عما تقدمه لنا هذه الأسباب من تفسيرات تساعدنا على تفهم وضعه العاطفي سنجد أنفسنا عاجزين، في نهاية الأمر، عن تعليل عشقه تعليلاً تاماً بواسطة رده إلى مقدمات وعوامل سابقة عليه، وسنضطر لأن نقبل بحبه، كما هو وعلى علأته، كواقعة لا يمكن إرجاعها إلى ما هو أبسط منها. ونحن نعبر عن هذا الموقف حين نقول لأنفسنا "ما الذي يراه في هذه المسخوط عليها حتى يعشقها ؟" أو حين نردد القول الشائع: "الحب أعمى". فيرد علينا العاشق: "أبداً، إنه مبصر ولكنه يرى بعينيه ما لا تراه أعين الغرباء." هنا تكمن تلقائية الحب وعفويته، كما بيّنها أحد الشعراء لما أنشد:

إني أحبُكِ حبّاً ليس يبلغه
فهمٌ ولا ينتهي وصفٌ إلى صفتِهْ
أقصى نهاية علمي فيه معرفتي
بالعجز منيَ ، عن إدراك معرفتهْ

وبسبب تلقائية الحب نجد أنه لا يتناسب تناسباً معقولاً أو موزوناً مع محاسن المحبوب وفضائله ومفاتنه. كما أنه من المعروف أن العاشق ينزع دوماً إلى سبغ المعشوق بخصال وخصائص لا يتصف بها من وجهة نظر محايدة بعض الشيء. وبخلاف الآراء الشائعة يبدو أن الجمال الجسماني، بحد ذاته، لا يلعب الدور الأكبر في الهوى والعشق، كما

أشار إلى ذلك الجاحظ في إحدى رسائله. قال: "وذلك أن العاشق كثيراً ما يعشق غير النهاية في الجمال، ولا الغاية في الكمال، ولا الموصوف بالبراعة والرشاقة. ثم إذا سئل عن حجته في ذلك لم تقم له حجة."(٣)

وليس في هذه الظاهرة ما يثير الدهشة لأنه حين ينظر العاشق إلى موضوع عشقه من خلال هذا التركيز الهائل لأحاسيسه وانفعالاته وتنبهه إلى شخص المعشوق لابد أن يراه على صورة تختلف في ألوانها وظلالها عن الصورة التي تبدو للمشاهد العادي الذي لايعنيه أمر المعشوق إلا بصورة طبيعية وعادية. لذلك يتبدى للعاشق وكأن المحبوب يتمتع بحضور خاص يتفرد به عن كافة الأشياء الأخرى، فيسيطر على جميع حواس عاشقه وقدراته وعواطفه وطاقاته في ساعة حضوره. أما المشهورات، في مجتمعهن، بحسن الصورة الخارجية والجمال الجسماني الخارق فإنهن نادراً ما يتحولن إلى موضوعات مناسبة للعشق بالمعنى التام للكلمة إذ يشار إليهن بالبنان من قبل المجموع وفي الأماكن العامة، تماماً كالأنصاب التذكارية الجميلة، باعتبار أنهن جزء من زينة المكان والبلد التي يجب أن يلفت إليها نظر كل من لم يلاحظها أو كل من لم يسمع بها سابقاً(٤). يصلح هذا النوع من الحسن الجسماني لأن يكون موضوعاً شيقاً للتذوق الجمالي البحت والاستمتاع الفني المرهف ولكنه لا يخلق العشاق ما لم يقترن بصفات وخصال أخرى ليس هنا المجال لتفصيلها. وقد أشار ابن حزم إلى هذه الظاهرة بجملة مقتضبة قال فيها: "ولو كان علة الحب حسن الصورة الجسدية لوجب الا يستحسن

---

(٣) رسالة "في القيان"، "ثلاث رسائل للجاحظ"، تحقيق فينكل، القاهرة، ١٣٤٤هـ، ص٦٧ .

(٤) راجع: Ortega Y.Gasset, On Love, Meridian Books, New York, 1958, ص٩٧ .

الأنقص من الصورة." وبما أن العكس هو الصحيح نراه يضيف "نحن نجد كثيراً ممن يؤثر الأدنى ويعلم فضل غيره ولا يجد محيداً لقلبه عنه."(٥)

ولتبيان ناحية أخرى من معنى تلقائية الحب وعفويته أسوق مثلاً أوروبياً قديماً يعود إلى العام ١١٧٤:

"إننا نعلن حقيقة ثابتة نؤمن بها وهي أنه لا يمكن للحب أن ينشأ بين المتزوجين أو أن تؤثر قوته فيهم ، إذ أن العاشقين يهبان بعضهما كل شيء طوعاً واختياراً بعيداً عن تأثير كل ضرورة أو قسر ، أما الزوجان فهما ملزمان بحكم الواجب أن ينزلا نزولاً كلياً عند رغبات بعضهما وألا يضن أحدهما بشيء على الآخر ."(٦)

٤) من مميزات الحب الذي يعنينا هنا أنه لا يقتصر على كونه مجرد انفعال سلبي يطرأ على الإنسان مثل الحزن أو الانشراح أو التأثر الوجداني، بل يتصف، بالإضافة إلى ذلك، بطابع حركي يميل به نحو الفعل المستمر والنشاط الدائب والسعي للاتجاه نحو المحبوب بغية تحقيق الاتصال به والاتحاد معه. والعشاق لا يكتفون، بصورة عامة، بمجرد الاستمتاع السلبي بالمحبوب وحضوره وأجوائه بل يتعدّون ذلك إلى ميدان الايجاب حيث يسعون لإسعاده والتضحية في سبيل تحقيق رغباته والعمل على تأمين هنائه بالعطاء والبذل وتحمل المشقّات. ومن هنا أيضاً الفارق القائم بين الحب والصداقة، مع ما بينهما من صلات القربى التي لا تنكر، حيث أن الصداقة قائمة أيضاً على المودة والثقة والتعاطف

---

(٥) "طوق الحمامة" ، ص٦ .

(٦) The Natural History of Love ، ص١٤٢ .

والبذل والتضحية في سبيل الصديق ومصلحته، لكنها لا تتأثر البتة باعتبارات الافتتان والسحر والاستسلام الكامل التي تميز صلة الحبيبين عن مجموع العلاقات الأخرى التي يمكن أن تقوم بين الإنسان والإنسان.

٥) يتميز الحب الذي ترك أثراً هاماً في تاريخ الإنسان وأدبه وفكره بكونه شقياً تعيساً يائساً. إنه الحب الذي لا يعرف النهايات السعيدة لأنه دوماً حليف المآسي وقرين الموت والدمار والخراب وكأنه قوة تتسلط على الإنسان تسلط القدر المكتوب فتدفعه إلى مصير مظلم محتوم لا حياد عنه البتة. أما الحب المتوج بالسعادة المستمرة والاكتفاء الدائم، إن كان له ثمة وجود على الاطلاق، فإنه لم يلهم، إلاّ فيما ندر، أحداً من كبار الكتّاب أو عباقرة الشعراء والأدباء ولم يحرك في الإنسان أية مشاعر عميقة تستحق الذكر أو التدوين، بل ظلّ منطوياً على نفسه يتمتع بسعادته المفترضة دون أن يفرض وجوده على انتباه أحد. الحب الكبير الذي عرفه الإنسان ودوّن الآثار الخالدة في وصفه هو الحب الذي يحيينا ويدمّرنا ويميتنا ويترك آثاره علينا مدى الحياة. إنه الحب العاصف التعيس الذي يلهب الخيال وينساب معه العاشق وكأنه أمام قدر محتوم لا حول له ولا قوة على رده.كان مشاهير العشاق يختارون دوماً تقديم حبهم على جميع الاعتبارات الأخرى المتصلة بالحياة، وباختيارهم حبهم كانوا يختارون أيضاً طريق البلاء والشقاء والموت. هذا ما فعلته كليوباترا حين جعلت مارك انطوني يتفوه بجملته المشهورة: "لندع روما في نهر التيبر تذوب". فكان اختياره للاسكندرية بدلاً عن روما اختياراً للموت مع معشوقته ولدمار امبراطورية وزوالها.

باستطاعتنا أن نورد أمثلةً لا حصر لها على هذه الحقيقة، منها

قصة روميو وجولييت، وعشق آنّا كارنينا لفرونسكي في رائعة تولستوي الأدبيــة المشــهـورة، ووقــوع كــاترين في حب فـريدريك هنري فـي رواية همنغواي "وداعاً أيها السلاح". وقد علق ابن حزم باقتضاب على نهاية الحب المتشائمة فقال: "وقد علمنا أن كل ما له أول فلا بدّ له من آخر... وعاقبة كلٍّ حب إلى أحد أمرين: إما اخترام منية وإما سلو حادث"[٧]. والالتفات إلى التراث الأدبي العربي يؤيد الفكرة نفسها حيث ارتبط الحب بالموت والقدر المحتوم ارتباطاً وثيقاً. كلنا يعرف الحديث المأثور: "من أحبَّ فعفَّ فمات، مات شهيداً". كما يعرف روايات الحب العذري التي كانت تنتهي دوماً بموت العاشقين حرقةً وأسى على مصائب الزمان التي فرّقت بينهما. ومن أراد تتبع هذه الناحية من الموضوع في الأدب العربي فما عليه إلاّ بكتاب ضخم وضعه أبو بكر السراج باسم "مصارع العشاق" أورد فيه ما لا يحصى من القصص والروايات التي تدور حول موت العشاق وتلفهم بسبب الكلف والوجد ومنها قصة العاشق الذي غرق مع حبيبته في دجلة وهو ينشد:

أنتِ التي غـرَّقـتِني
بعد القضا لو تعلمينا
لا خير بعدكِ في البقا
والموتُ سِتْرُ العاشقينا[٨]

كما خصص الإمام ابن الجوزي عدّة فصول من كتابه "ذمُّ الهوى" لأخبار من قتل معشوقه ومن قتل بسبب العشق، ومن قَتَله العشق، ومن

---

(٧) "طوق الحمامة"، ص ١٠٥.
(٨) "مصارع العشاق"، مكتبة الانجلو مصرية، ١٩٥٦، ج١، ص١٤١.

قتل نفسه بسبب العشق. ونذكر مرة أخرى أن العشّاق كانوا دوماً يشعرون بأنهم مقهورون بقوة تشبه قوة القضاء والقدر التي لا تردّ كما في قول أبي البكر الأصبهاني:

ولم يكن باختيار لي فأتركُهُ
ولا اضطرارٌ أتاه القلبُ مقهورا
لكنه من أمور الله ممتنعٌ
في الوصف قدّره الرحمنُ تقديرا

ولابد لي من ان أذكر هنا أن أحد الشعراء القدماء: أوجز خصائص الحب التي ذكرتها في أربعة أبيات جميلة هي:

ألا ما الهوى والحب بالشيء هكذا
يدلّ به طوع اللسان فيوصفُ
ولكنه شيء قضى الله أنه
هو الموت أو شيء من الموت أعنفُ
فأولَهُ سقمٌ وآخره ضنى
وأوسطُهُ شوق يشفّ ويتلفُ
وروعٌ وتسهيدٌ وهَمٌ وحسرةٌ
ووجدٌ على وجد يزيد ويضعفُ

قبل أن أنتهي من هذا المقطع في البحث أريد أن أوضح فكرةً رئيسيةً تسيطر على هذه الدراسة وتتخللها وهي أنه لا يوجد أي فارق أساسي أو نوعي بين المرأة والرجل بالنسبة لعاطفة الحب، وذلك بخلاف الأفكار الموروثة الخاطئة كافة حول هذه الحقيقة وبخلاف التصورات

المسبقة المغروزة في عقولنا وقلوبنا أجمعين. وبما أن المجال لا يسمح للخوض في دفاع مطول عن هذا الرأي فسأكتفي بتلخيصه وعرضه عرضاً موجزاً ليكون القارىء على بينة، بغض النظر عما إذا كان يوافقني في الرأي أم يعارضني.

إذا ضربنا صفحاً عن العديد من الأفكار الشائعة وأنماط السلوك الفردية والاجتماعية الموروثة وأهملنا القيود والتقاليد الاجتماعية الرثة المتداعية، ولم نسمح لها أن تنحرف بنظرتنا الموضوعية إلى الوقائع كما هي على حقيقتها يتضح لنا، على ما يبدو لي، أن المرأة بحكم طبيعتها الإنسانية قادرة على أن تكون عاشقة ومعشوقة مثلها في ذلك كمثل الرجال. أي أنها قادرة، مثلاً، على السعي لاستمالة من تحبه من الرجال تبعاً لميولها وتقديراتها وعواطفها بخلاف التقاليد الصارمة التي تفرض عليها ألاّ تختار إلا في دائرة من يختارونها، وكأن حرمانها من حرية الاختيار والحركة والسعي نابع من طبيعة أنوثتها لا من التقاليد الاجتماعية الجائرة التي ليس المجال هنا للتفصيل في أصولها وأسباب طغيانها.

إننا نرفض المنطق التقليدي الذي يحدّ من حرية اختيار المرأة في حياتها العاطفية ضمن حدود من يختارونها أولاً من الرجال، ونقول إنها، بطبيعتها الإنسانية، (والطبيعة الإنسانية سابقة على الأنثوية ومفضلة عليها) قادرة على أن تحب وتعشق وتختار في أوسع الدوائر الممكنة، أشخاصاً لم يعيروها أي انتباه سابق على اهتمامها بهم، ولم يبدوا نحوها أدنى حماسة تشعرها بأنها مرغوبة بشكل خاص من قبلهم. إنها قادرة في الواقع، على أخذ زمام المبادرة العاطفية كلياً شأنها في ذلك

شأن بقية الناس، وليس صحيحاً ان كل ما هي قادرة على فعله هو إما الاستجابة، بصورة من الصور، وإما الرفض والابتعاد.

لاشك أن المرأة تشعر بنوع من الغبطة الخفية والارتياح العميق حين ينتقيها الرجل ليخصّها باهتمامه العاطفي حتى لو لم تكن تنوي قبوله في حياتها أو هي لا تشعر بأي ميل لمبادلته العاطفة بمثلها. ومصدر هذه الغبطة هو أن فعل الاختيار يجعلها تشعر بأنها محبوبة مرغوبة بغض النظر عن استعدادها وميلها للتجاوب العاطفي في تلك الساعة. غير أن هذا الإحساس بالغبطة والارتياح ليس وقفاً على النساء فحسب، وكل من يدقق في الأمر لابد أنه مدرك أن الرجل يشعر أيضاً بمثل هذه الأحاسيس عندما يكون محط أنظار النساء ويلذّ له أن يكون مفضلاً لديهن حتى لو لم يكن في نيته التجاوب العاطفي مع من اختارته أو هو لا يشعر بأي ميل لمبادلتها العاطفة في الوقت الحاضر. أي كما أن الرجل قادر على أن يختار وأن يرتاح لكونه موضوع الاختيار، كذلك الأمر بالنسبة للمرأة: إنها قادرة، أصلاً، على الاختيار وعلى الاستمتاع بكونها موضوع الاختيار.

وحري بالذين ينظرون إلى الحب على أنه ظاهرة روحية خالصة، أو أنه يتركز تركيزاً كلياً في النفس الإنسانية، بأن يأخذوا بهذا الرأي بدون تردد لأن "النفس الإنسانية" بحد ذاتها، لا تخضع لاعتبارات التذكير والتأنيث إلا عرضاً ومجازاً كما عبرت عن ذلك الحكمة الفرنسية أبلغ تعبير بقولها، "L'Ame n'a pas de sexe". والجدير ذكره بهذا الصدد أن الكشوف العلمية الحديثة أظهرت بما لا يقبل الجدل أن عناصر الرجولة والأنوثة تشترك معاً في تكوين كل إنسان (ذكراً كان أم أنثى) وتدخل

في بنيانه الفيزيولوجي والسيكولوجي بنسب مختلفة. الأمر الذي يبين أن الفارق بين الرجولة والأنوثة ليس فارقاً نوعياً قاطعاً، كما هو شائع، بل هو فارق كمّي يتحدد بنسبة سيطرة عناصر معينة على بنيان الفرد. ولقد أدرك الشاعر العربي هذه الحقيقة ببديهته وعبّر عنها بقوله:

عـــــينـاكِ شـــــــاهدتـانِ أنـكِ مـن
حـــرِّ الهـــوى تجـــدين مـــا أجِـــدُ
بكِ مــــا بـنا لـكنْ على مـــــضضٍ
تتـــــجلدّينَ ومـــــا بـنـا جَلَدُ

ونلاحظ أن الشاعر لم يعزُ الفارق بين قدرته وقدرتها على التجلّد إلى طبيعتها الأنثوية وإنما عزاها إلى القسر والإرغام، المفروضين عليها نفسياً واجتماعياً، ولذلك اضطرت للتجلّد على مضضٍ، في حين أن حقيقة حالها لا تختلف بشيء عن حقيقة حاله. وبمقابل نظرة الشاعر الفاحصة المدققة لحقيقة الوضع الذي تجد المرأة نفسها فيه بالنسبة للامكانات المتوفرة لها في التعبير عن واقع مشاعرها ونوازعها المكبوتة والدفينة، نجد أن كاتباً عصرياً (أو بالأحرى شبه عصري) مثل عباس محمود العقاد يتشبث بنظرة فاسدة رجعية تصرّ على استخلاص هذا الوضع من الطبيعة الأنثوية بحدّ ذاتها وكأن ما اعتبره الشاعر تجلداً منها على مضض وبسبب الأضطرار ليس إلا من جوهر الطبيعة الأنثوية الأصيل الذي لا يتغير ولا يتبدل مع تبدّل الزمان والمكان والمجتمعات. ولذلك نرى أن تعليل العقاد لا يفسر استعصام المرأة بالاحتجاز الجنسي مثلاً بردّه إلى واقع الشرائع والأعراف السائدة في مجتمع ما، بل يقول بهذا الصدد.

فالمرأة تستعصم بالاحتجاز الجنسي ، لأن الطبيعة قد جعلتها جائزة للسابق المفضل من الذكور ، فهي تنتظر حتى يسبقهم إليها من يستحقها فتلبيه تلبيةً يتساوى فيها الإكراه والاختيار . كذلك تصنع إناث الدجاج وهي تنتظر ختامَ المعركة بين الديكة أو تنتظر مشيئتها بغير صراع . . ."[٩]

بعبارة أخرى، إننا نرفض خرافة الماهيات أو الطبائع الثابتة وسبلها في تعليل خصائص الموجودات في الزمان والمكان باستنتاجها من تصوّر الماهية نفسها. وليس من شك في أن العقاد هو من المروّجين لمثل هذه الخرافات ويبدو ذلك جلياً في تعليله للرياء الذي يفترض في المرأة أن تتصف به إلى درجة أعظم من الرجل حيث يقول:

"إلاّ أن الرياء الأنثوي الذي يصحَ أن يقال فيه إنه رياء المرأة خاصة ، إنما يرجع إلى طبيعة في الأنوثة تلزمها في كل مجتمع ، ولا تفرضه عليها الآداب والشرائع ، ولا يفارقها باختيارها أو بغير اختيارها . . ."[١٠]

كما يعدّ العقاد هذا الرياء "وظيفةً حيويةً تستمتع بها المرأة بالمعالجة والرياضة كما تستمتع الأعضاء بالحركة والنشاط..."[١١]

---

(٩) عباس محمود العقاد ، "المرأة في القرآن" ، دار الهلال ، القاهرة ، ص٣٥ .

(١٠) "المرأة في القرآن" ، ص١٧ ـ ١٨ .

(١١) "المرأة في القرآن" ، ص٢٨ .

وانسجاماً مع الموقف الذي اتخذته بالنسبة لهذا الموضوع يجب أن أذكر أن جميع الاعتبارات والاستنتاجات الرئيسية الواردة في هذه الدراسة تنطبق على المرأة تماماً كما يفترض فيها أن تنطبق على الرجل، علماً بأنني لم أحاول الدخول في تفاصيل هذه المسألة. كما ينبغي أن أنوه بأن تركيب اللغة يتطلب مني، بصورة عامة، أن أكتب وأتكلم بصيغة المذكر. كما أنه يفرض على الكاتب تذكير موضوعات لا تقبل في الحقيقة التذكير والتأنيث إلاّ عرضاً ومجازاً، فلا يظنّنّ أحد، تحت تأثير هذا الوهم اللغوي، أنني تحيزت لجانب الرجل في دراستي ضارباً بذلك عرض الحائط بكل ما قلته وعنيته حول هذه القضية.

وأخيراً أقول بأنني أعلم أنه لابد لمن يكتب عن ظاهرة الحب من أن يلقى حساباً عسيراً من القراء والمستمعين كافة، لأن ما من إنسان إلا ويعدّ نفسه خبيراً في موضوع الحب، مطّلعاً على تفاصيله ومخّولاً لأن يبدي الرأي حوله ويطلق الأحكام (النقدية والمؤيدة والمجحفة...) على آراء الآخرين فيه. وليس لي من مطلبٍ هنا سوى التمَني على من يهمهم أمر هذه الأبحاث بالتروّي والتسامح وبعدم توقع الوضوح التام والانسجام الكامل في أية محاولة لفهم ظاهرة عاطفية لا تنتعش إلا في الأجواء الغامضة المعتمة ولا تزدهر إلا على أساس المفارقات والتناقضات الماثلة في أعماق حياة الإنسان ومشاعره.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

مفارقة الحبّ

تتصف عاطفة الحب، كغيرها من المشاعر والانفعالات الإنسانية، ببعدين رئيسيين: الامتداد في الزمان، أي دوام الحالة العاطفية واستمرارها عبر فترة معينة من الزمن، والاشتداد ، وهو يدل على مدى عنف الحالة العاطفية وحدّتها في لحظة ما في الزمان. امتداد الحب هو كيفية شعورية متجانسة لا تطرأ عليها التغيرات النوعية، عادة، إلاّ ببطء وعلى نحو تراكمي كأن تبدأ علاقة ما بالصداقة وتتطور إلى محبة أو العكس بالعكس. أما اشتداد الحب فإننا نحسُه على صورة كمّ تشتد حدّته أو تنقص من لحظة إلى أخرى، أي أنه قابل للوصف بلغة التدرج صعوداً أو هبوطاً، زيادة أو نقصاناً.

تعبر لغة العواطف الشائعة عن هذه الأحاسيس باستعارات مشهورة مثل: "استعار نار الحب وتأجّج حريقه وتوقدّ شعلته"، أو "برد حبُها له وملّت منه"، أو عن طريق التمييز بين حالات معينة من الحب تبدأ بأقلّها عنفاً مثل الود ، وتنتهي بأشدها قوةً وحدةً مثل الهيام والشغف، مروراً بحالات تتدرج بين هذين الطرفين مثل: الهوى والوجد والكلف والعشق والتتيم. بعبارة أخرى، تبين لنا التجربة المباشرة أن الحب، كغيره من

المشاعر الإنسانية، يمتدّ ويشتدّ (أو يقصر ويضعف) وفقاً لظروف وأوضاع وبواعث معينة[١٢].

ولا يظننّ أحد أن العلاقة بين امتداد الحب واشتداده هي بالبساطة التي تبدو عليها لأول وهلة، لأن الواقع الذي يتكشف لمن يمعن النظر فيها هو أنه كلمّا امتد الحب وطالت مدته خفت حدته وتناقص اشتداده باتجاه يقترب باستمرار من درجة الصفر كحد أدنى. ونحن نعرف أن العلاقات الغرامية التي تنزع الى الاستمرار والبقاء تفقد عنفها وزخمها بمرور الزمن والأيام لتتحول الى صلات من نوع آخر تتصف بالثبات وبالاستقرار والإلفة بين الفريقين المتحابين وتبتعد بذلك عن كل ما يمت بصلة إلى الانفعال الحاد، فتبدو شاحبة ضعيفة غير قادرة على إثارة أي اختلاجات أو رعشات في أعماق الإنسان. ومن ناحية أخرى، نجد أن العلاقات الغرامية السريعة نسبياً والقصيرة في مدتها تميل إلى الانفعال

---

(١٢) لابد من الإشارة هنا إلى نظرية الفيلسوف الفرنسي هنري برغسون حول طبيعة الحالات العاطفية التي يشعر بها الإنسان وهي نظرية مشهورة تقول : إن التعمق في دراسة أحوال النفس تبين أن الشعور باشتداد إحساساتنا وعواطفنا يفسر بإرجاعه إلى مجموعة من التغيرات الكيفية السريعة التي تبدو للوجدان وكأنها زيادة أو نقصاً في درجة عنف الإحساس واشتداده . وينبغي أن أبين أنه لا علاقة لدراستي بالتعليلات الميتافيزيقية النهائية لمعنى الاشتداد في المشاعر لأن الأمر الذي يعنيني هو التجربة العادية المباشرة التي تبين بوضوح أن العواطف تشتد وتبرد ، تفور وتهدأ مهما كان نوع الرأي النهائي الذي نعتنقه في تفسير الظاهرة نفسها . والخلاف بين برغسون وغيره من المفكرين ليس في الإقرار بأن الغضب مثلا يشتد ويفتر في حدته -كما يعرف كل إنسان من تجاربه الحية- وإنما في النظرية الفلسفية التي يقولون بها في تعليل اشتداد درجة الغضب وفتوره . وحين نرجع اشتداد الغضب إلى كثافة الكيفيات الشعورية المتبدلة لا يعني هذا بأننا فقدنا القدرة على التمييز بين درجة الغضب حين نغضب قليلاً وبين درجته حين نغضب غضباً شديداً وعظيماً ، كما تشهد على ذلك لغة الحياة وتجاربها اليومية .

الشديد في الحب وإلى أقصى درجات العنف في اشتداد العاطفة وفي تركيز الرغبة لامتلاك المحبوب والذوبان فيه مهما كلف الأمر. هذه هي التجربة الغرامية التي تضع العاشقين في أوج النشوة والابتهاج كما تعرِّفهما، بالمعاناة المباشرة، على معنى الانذهال والانخطاف، من شدة الهيام وعنفه. وكلما قصرت الفترة التي تمتد عبرها التجربة الغرامية العنيفة تكثفت الانفعالات الجياشة وانضغطت العواطف الجامحة في عدد أقل من اللحظات إلى أن يبدو للعاشقين وكأنهما على وشك ملامسة تجربة تكشف لهما الدنيا مضغوطة ومكثفة دفعة واحدة في لحظة مطلقة لا امتداد لها أبداً. فيتعرفون بذلك إلى الاشتداد العاطفي الخالص والعنف الانفعالي البحت الذي لا تشوبه شائبة من مستوى الامتداد. ولهذه الأسباب تكون تجربة العشق العنيفة غنية في كل شيء، ممتلئة بالأحاسيس والمشاعر وبكل ما تريده النفس وتشتهيه، وعميقة في تغلغلها إلى خفايا الروح لتهزَّها وتثيرها وتوترها كما لم يحدث لها في سابق عهدها قط. أظن أن الكاتب المسرحي المشهور موليير أراد أن يشير إلى العلاقة القائمة بين امتداد الحب واشتداده حين ذكر على لسان أحد أشخاص مسرحيته "دونجوان" وهو يخاطب فتاة جميلة في محاولة لإغرائها مايلي:

> "لا ريب أن هذا الهيام قد طرأ عليَّ بصورة مفاجئة جداً ، ولكن ما أهمية ذلك ، إنه نتيجة لجمالك الأخاذ يا شارلوت ، وبالإمكان أن يحبك شخص خلال ربع ساعة بما يعادل حب شخص آخر لك خلال ستة أشهر ."(١٣)

---

(١٣) مسرحية "دونجوان" ، الفصل الثاني ، المشهد الثاني .

ونلفت الانتباه هنا إلى أن الامتداد البحت من ناحية والاشتداد الخالص من ناحية أخرى ليسا إلاّ نهايتين نظريتين وهميتين لا تتحققان في واقع التجربة العاطفية قط، إذ أن الحب مهما كان عنيفاً لابد أن يمتد عبر فترة من الزمن مهما قصرت، كما أنه مهما امتد وطال لابد له من أن يتصف بشيء من الاشتداد، حتى لو كان في أحط درجات الشحوب والبهتان، وإلاّ تلاشى كلياً وأصبح بحكم العدم وخارج نطاق الشعور والإحساس. باستطاعتنا التمثيل على هذه الفكرة بقولنا إن شأن العلاقة بين امتداد الحب واشتداده هو كشأن العلاقة بين اللذة والسرور. اللذة حالة عابرة سريعة غير أنها عنيفة وشديدة الوقع والتأثير على الإحساس والوجدان. ويشترك السرور بالكيفية الشعورية مع اللذة ولكنه أبقى وأثبت ولا يمكن له أن يتصف بعنف اللذة وشدة انفعالها بدون أن يفقد طبيعته ويتحول إلى حالة غير حالته لأن الهدوء والاعتدال من خصائص السرور الجوهرية.

لكل من هذين البعدين في عاطفة الحب متطلباته التي ينزع إلى تحقيقها، وتجلياته التي يظهر فيها في حياة الانسان الشعورية وفي صلاته ببقية الناس وفي علاقاته بالمؤسسات الاجتماعية التي أنشأته ولا تزال حياته تنتظم ضمنها. كما أن لكلٍ منهما تأثيراته التي تتبدى في مواقف الفرد ونظرته إلى عالمه وقيمه وواجباته الفردية منها والاجتماعية على حد سواء. وسأبدأ بتفصيل هذه الأمور بالنسبة لبعد الامتداد.

نحن لا نأتي بجديد إن قلنا إن النزعة الأولية التي يتطلب الامتداد تحقيقها هي استمرار الحب وبقاؤه عبر أطول فترة زمنية ممكنة أي على مدى حياة الحبيبين على أقصى تعديل. ويتمثل هذا الاتجاه في الحب،

على مستوى المشاعر والعلاقات الإنسانية، بالمحبة والمودة والإلفة والتعاطف والتعاون، وكلها حالات تتصف بالهدوء والسكينة والثبات النسبي إذا ما قورنت بالتجربة الغرامية العنيفة وأحوالها.

وتتجسد نزعة الامتداد في الحب في مؤسسة الزواج والأسرة التي يفترض فيها أن توفر الطمأنينة والسكينة والاستقرار للفريقين المتحابين وأن تشكّل حجر الزاوية في بنيان المجتمع واستقراره واستمراره من عصر إلى عصر، وفي ثبات تقاليده وأنماط سلوكه من حقبة إلى حقبة. وعندما ينزل الإنسان عند هذه الرغبة الماثلة في طبيعة حبه فيؤسس الحياة الزوجية يأمل بتحقيق نوع من الهناء والسعادة الهادئة في كنفها ويلتزم بحياة تغلب عليها الرتابة والانضباط والروتين، ويتقيد بقيم تشدّد على أهمية الواجبات العائلية والاجتماعية وعلى ضرورة التعقل والاتزان والاعتدال في جميع أمور الدنيا والحياة. هذه هي "شريعة الامتداد" في حياة الحب.. وكل من عرف طعم الحب حقاً يعلم أن نفسه تنزع نزوعاً لا مواربة فيه للعمل على ابقائه على قيد الحياة وتثبيته في وجه جميع العقبات التي تعترضه وعلى استمراره بالرغم عن كافة تقلبات الزمان وكأنه يطلب له الخلود. ولذلك نرى أن شريعة الامتداد ترفع فكرة الزوجين الوفيين وفاء تاماً كمثل أعلى ينبغي على كل من يسير على طريقها أن يحققه وينتفع بالخير الماثل فيه. ولتحقيق غاياتها تستنفر شريعة الامتداد جميع الضغوط الاجتماعية والدينية والقانونية والنفسية لتضمن تقيد أكبر عدد ممكن من الأفراد في المجتمع الواحد بالواجبات التي تفرضها والقيم التي ترفع رايتها فتحمي بذلك نفسها وتضمن استقرار المؤسسات التي تتجسد فيها من تأثيرات قوى معادية قد تعمل على تحطيمها.

أما بالنسبة لبعد الاشتداد في عاطفة الحب فإن نزعته الأصيلة، التي تطلب تحقيق ذاتها وإشباع ميولها، فهي الرغبة العارمة في أن يرتفع الحب دوماً إلى أقصى درجات العنف والانفعال والجيشان، أي أن تكون شعلته دوماً ملتهبةً متوهجةً تحرق الحبيب والمحبوب معاً، وتذيبهما في وحدة تامة "حتى يقول الواحد للآخر يا أنا"(١٤) في ساعة الامتلاك. وتتمثل هذه النزعة في الحب، على مستوى المشاعر والعلاقات الإنسانية، بالعشق والهيام والوله، وكلها حالات تتصف بالصخب والاندفاع والحدّة والسورة العارمة والانفعال الشديد، وهي خصائص كل تجربة غرامية تهز كيان الإنسان. وإذا كانت نزعة الامتداد في الحب تتجسد في الزواج فإن نزعة الاشتداد تتجسد في "المغامرة الغرامية" التي يفترض فيها أن توفر للعاشقين جواً حافلاً بالمغامرات والغزوات والمفاجآت مما يزيد من عنف نشوة الحب وقوتها حتى يشعر العاشقان بأنهما قد خرجا عن نطاق الزمان وعاشا ساعة فيها من زخم الحياة وامتلائها بما يعادل مئات الساعات بل آلافها، من حياة الرتابة والهدوء والمشاغل اليومية وتفاهاتها وفراغها. ومن منا لم تتق نفسه يوماً لتحقيق تجربة حب عارمة تضعه، ولو لسويعات قليلة، في ذروة من مشاعر الحب يحسّ فيها أنه انتقل من عالم إلى عالم فأصبح وقد تخطّى الخير والشر، والكفر والإيمان، والمأساة والملهاة في حياة الإنسان، تاركاً خلفه مشاكله وهمومه كافة ومشاغله وأفراحه العادية وأتراحه اليومية. من منا لا يفتدي هذه التجربة الممتلئة بالحرارة والحياة بجزء كبير من ساعات عمره الرتيبة الرصينة المتكررة الباردة.

---

(١٤) من الرسالة القشيرية في وصف الحب الحقيقي .

هذه هي "سُنّة الإشتداد" أو "سُنّة العشق" ومن سار على سبيلها وهداها رفض التعقل والاعتدال والاتزان، والتزم بالتهّور والتطرف، وبالشغف بالاخطار والمغامرات. لذلك لا غرابة في أن يبدو عشق آنا كارنينا لفرونسكي، من وجهة نظر الاعتدال والاتزان، وكأنه انفعال مفاجيء طرأ عليها، وأن يبدو استسلامها للانفعال عملاً طائشاً متسرعاً أدى بها إلى الاستهتار بالواجبات العائلية والالتزامات الاجتماعية. خضعت آنا لسلطان حبها بالرغم عن الاعتبارات كافة التي تمليها المصلحة، بما فيها مصلحتها الشخصية، وبالرغم من جميع المحاذير التي يبينها العقل والمنطق السليم ضد الاستسلام والخضوع له. وكل من عرف طعم العشق حقاً يعلم علم اليقين أن نفسه تنزع نزوعاً أصيلاً نحو إبقاء شعلته ملتهبة متقدة بشتى الوسائل والطرق وفي وجه كافة العقبات التي تعترض تحقيق هذه الغاية، ولذلك يقترن العشق بالصراع الغرامي المستمر والحركة الدائبة والمواجهة المتنوعة والتحدي المتجدد دوماً. وإذا كانت شريعة الامتداد تأخذ من شخصية الزوجين الوفيين مثلاً أعلى لتطلعاتها فإن سُنّة العشق تجعل من شخصية الدونجوان الأنموذج الأول ليحتذي به كلٌ من أراد السير على هواها وطريقها.

وعلى ضوء هذا التحليل لطبيعة الحب يتبين لنا أن من يلتزم بشريعة الامتداد ويعمل على إشباع رغبة حبه في البقاء بواسطة سعادة الأزواج الهادئة وهنائهم الرتيب ووفائهم الآلي كان عليه أن يدفع الثمن الباهظ وهو فقدان كل ما يمتّ بصلة إلى اندفاع الحب ورغباته العارمة وانفعالاته الشديدة. أي يستحيل عليه إرضاء الناحية الأخرى من حبه ونفسه لأن إشباعها يتعارض بصورة مباشرة مع طريقة العيش التي التزم بها واختارها. كما أن من يلتزم بسنّة العشق ويعمل على إشباع رغبة

حبه ونزعته نحو تحقيق أقصى درجات الاشتداد والحدّة في كل لحظة من لحظات حياته القصيرة يفقد إمكانية بقاء هذا الحب واستمراره وتثبيته ولو لفترة زمنية معقولة من حياة الإنسان. بعبارة أدق يميل الحب، بطبيعته الأصيلة، في اتجاهين متناقضين وينزع نزعتين متضاربتين ولا يمكن إشباع الأولى إلا على حساب الثانية ولا يمكن النزول عند رغبات الثانية وتحقيق اكتفائها إلا بالتضحية الأليمة بمتطلبات النزعة الأولى وحرمانها من الشعور بالاكتفاء والرضا. فمن سار على سُنّة العشق والتزم بها يشقى بسبب فقدانه لكل ما تعنيه نزعة الامتداد بالنسبة لحبه ولدوامه، ومن سار على شريعة الإمتداد والتزم بها تنغّص عيشه باستمرار بسبب فقدانه لكل ما تعنيه نزعة الاشتداد في حياة الحب. سأدعو هذا الإشكال الماثل في طبيعة الحب "بمفارقة الحب الكبرى"، وقد وصف ابن حزم في رسالته المشهورة هذه المفارقة على أنها صراع بين "النفس" التي ترمز عنده إلى نزعة العشق وسنتّها، وبين "العقل" الذي "يرمز إلى استمرار الحب واستقراره، فقال:

"فهاتان الطبيعتان قطبان في الانسان، وهما قوتان من قوى الجسد الفعال بهما ... فهما يتقابلان أبداً ويتنازعان دأباً، فإذا غلب العقلُ النفسَ ارتدع الإنسان وقمع عوارضه المدخولة واستضاء بنور الله واتبع العدل وإذا غلبت النفسُ العقلَ عميت البصيرة، ولم يصح الفرق بين الحسن والقبيح، وعظم الالتباس وتردى في هوة الردى ومهواة الهلكة ..."(١٥)

---

(١٥) "طوق الحمامة"، ص١٢٢ .

وواضح أن وصف ابن حزم للميول المتعارضة التي تتنازع الحب يتحيز لشريعة الامتداد ولكن بإمكاننا أن نغض النظر عن رأيه الشخصي في تفضيل ناحية على الأخرى ونستفيد من إدراكه للمعضلة ووصفه لها. وقد ذكر ابن قيم الجوزية أنه وضع كتابه المشهور "روضة المحبين ونزهة المشتاقين" "ليعقد صلحاً بين الهوى والعقل". وبغض النظر عن رأينا في إمكانية عقد مثل هذا الصلح إن مجرد الدعوة إليه تعني إدراكه لوجود إشكال أساسي في طبيعة الحب.

كيف تتجلى مفارقة الحب الكبرى في كل من شريعة الامتداد وسُنَّة العشق أو الاشتداد ؟ تشكل شريعة الامتداد جزءاً لا يتجزأ من حياة البيئة الاجتماعية التي تحيط بالفرد وتنزع نزعةً محافظةً غايتها صيانة نفسها بصيانة الأوضاع القائمة حولها. ولذلك نراها تنظر إلى سُنة العشق وممارسته نظرة ملؤها الريبة والقلق، لأن الأخيرة تمثل قوى لو أتيحت لها فرصة الانطلاق لعصفت بما هو قائم وهدّدت استقرارَ الحياة واستمرارَ الحب الهادىء الساكن. وتعمل شريعة الامتداد متضافرةً مع الأخلاق السائدة والقيم الدينية الشائعة والمؤسسات الاجتماعية القائمة على كبت نزعة الاشتداد والانفعال في طبيعة الحب وحرمانها من تحقيق رغباتها وتطويق تفاعلاتها ضمن أضيق نطاق لحصر الخطر الناتج منها ومن عواقبها. لذلك نجد أن العشق يقترن دوماً، في مجتمعات الكبت والقمع العاطفي، بالكتمان الشديد من قبل المحبين من ناحية، وبفضول لا حدّ له عند الآخرين من ناحية ثانية. الأمر الذي يعلل كثرة الكلام في هذا المجال عن: العُذّال والرقباء والوشاة والنمّامين والسفراء والمساعدين من الإخوان، وطيّ السر، والتعريض بالقول، والإشارة بالعين الخ...

تنظر شريعة الامتداد ومؤسساتها المحافظة إلى العشق على أنه ضرب من الجنون والاستهتار والخروج عن العقل والواجب والمألوف. كما يرتبط العشق دوماً، في لغة شريعة الامتداد، بالخطيئة وبالحرام والحلال وبالرغبة الجنسية "الوضيعة والدنيئة"، وبالفساد والانحلال، والعقاب والثواب. على سبيل المثال يعدّد ابن الجوزي في كتابه "ذمّ الهوى" مساوىء العشق العنيف ومزالقه - من وجهة نظر شريعة الامتداد وقيمها طبعاً - ويدعو للتعقل والاتزان والتزام النظرةَ البعيدة في الأمور العاطفية فيقول:

"إعلم أن مطلق الهوى يدعو إلى اللذة الحاضرة من غير فكر في عاقبة، ويحث على نيل الشهوات عاجلاً، وإن كانت سبباً للألم والأذى (في العاجل) ومنع لذات من الآجل. فأما العاقل فإنه ينهى نفسه عن لذة تعقب ألماً، وشهوة تُورث ندماً، وكفى بهذا القدر مدحاً للعقل وذماً للهوى . . . واذا عرف العاقل أن الهوى يصير غالباً، وجب عليه أن يرفع كل حادثة إلى حاكم العقل، فإنه سيشير عليه بالنظر في المصالح الآجلة، ويأمره عند وقوع الشبهة باستعمال الأحوط في كف الهوى، إلى أن يتيقن السلامة من الشر في العاقبة."(١٦)

---

(١٦) "ذم الهوى"، تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٦٢، ص١٢-١٣.

وواضح أن من يتبع نصائح الإمام ابن الجوزي ويتمسك بها لن يعرف طعم العشق في حياته، بل سيعتبره داءً يجب الابتعاد عنه بكل ما أوتي الإنسان من قوة.

أما سُنّة العشق فهي في موقف التحدي المستمر لكل ما تدعو إليه شريعة الامتداد إذ أن تحقيق النزعات الكامنة فيها يؤدي دوماً إلى نسف أوضاع الكبت والقمع المفروضة على المغامرة الغرامية العنيفة باسم الأخلاق والدين ومصلحة المجتمع واستقرار الأسرة والحياة الزوجية. ترفض سنّة العشق معايير شريعة الامتداد وقيمها وتقلب أفكارها حول الواجب والخير والشر والحلال والحرام رأساً على عقب. وقد أبدع ابن حزم في وصف سلطان العشق وسنته حين كتب:

" . . واعلم أعزَّك الله أن للحب حكماً على النفوس ماضياً ، وسلطاناً قاضياً ، وأمراً لا يخالف ، وحداً لا يعصى ، وملكاً لا يتعدى ، وطاعةً لا تصرف ، ونفاذاً لا يردّ ، وأنه ينقض المبرر ، ويحلّ المبرم ، ويحلّل الجامد ، ويخلّ الثابت ، ويحل الشغاف ، ويحلّ الممنوع . . . فلا يملك الإنسان حينئذ لنفسه صرفاً ولا عدلاً ، وهذا من أبعد غايات العشق وأقوى تحكمه على العقل ، حتى يمثل الحسن في تمثال القبيح والقبيح في هيئة الحسن . وهنالك يرى الخير شراً والشر خيراً . وكم مصون الستر مسبل القناع مسدول الغطاء قد كشف الحب ستره ، وأباح حريمه ، وأهمل حماه ، فصار بعد

الصيانة علماً، وبعد السكون مثلاً . . . فسهل
ما كان وعراً . وهان ما كان عزيزاً ،
ولان ما كان شديداً"[١٧]

ذكرت سابقاً أن المثل الأعلى الذي ترفعه سُنّة العشق هو شخصية الدونجوان وحياة المغامرة الغرامية التي اشتهر بها. لندرس قليلاً هذه الشخصية على حقيقتها ونتبين كيف تنظر إليها شريعة الامتداد ومؤسساتها المحافظة آملين في أن نفهم شيئاً عن مبررات اهتمام مخيلة الإنسان بالخصال الدونجوانية.

نستنتج من التحليل السابق لطبيعة الحب أن حياة الشخصية الدونجوانية ليست إلا محاولة مستمرة للبقاء بالحب على مستوى العشق العنيف والانفعال الحاد والبحث عن شتى الوسائل والطرق التي تبعد عنه خطر الاستقرار وما يتبعه من وهن في اشتداد العشق وضعف في حدته وتعريضٍ له للرتابة والتكرار والملل. وبما أن الدونجوان يريد عشقه أن يكون دوماً متوهجاً متقداً وفي ذروة التوتر نراه يرفض العلاقات العاطفية الدائمة المستقرة ويرفض مؤسسة الزواج (بالرغم من وعود الزواج السخية التي يطلقها في سبيل تحقيق مآربه) ويحتقر الأزواج وينتقم منهم بإغراء الزوجات، ويلجأ إلى التنويع المستمر والتبديل الدائم في علاقاته الغرامية، وإلى الغزوات والمغامرات العاطفية المتلاحقة ليبعد عنه شبح الاستقرار وما يستتبع من شحوب وسأم وملل في الحب،

---

(١٧) "طوق الحمامة" ، ص٢٧ ، ٢٩ .

وليبقي عشقه في أوج التلقائية والعفوية والاندفاع الذاتي. وليس لنا أن ننده‍ش حين نذكر أن ما من شخصية تهز قلوب النساء وتبهر عقول الرجال مثل الدونجوان على الرغم من أنه عديم الوفاء (ولكنه يوزع الأيمان المغلظة بالوفاء الأبدي يميناً ويساراً) ويقف موقفاً معادياً من كافة القيم التي نلتزم بها في حياتنا العادية ومن جميع المؤسسات التي ينتظم عيشنا ضمنها يوماً بعد يوم. وسبب ذلك هو أن الشخصية الدونجوانية تتجاوب مع نزعة دفينة مكبوتة في نفس كل فرد منا وتمثل الانعتاق من قيود شريعة الامتداد التي تغلف حياتنا، والتنازل الكامل عن كل ادّعاء في تثبيت الحب ومده أفقياً. وفيما يلي الوصف الذي تركه لنا ابن حزم للشخصية الدونجوانية:

" . .وأهل هذا الطبع أسرع الخلق محبة، وأقلّهم صبراً على المحبوب . . . وانقلابهم على الودّ على قدر تسرعهم إليه . فلا تثق بملول ولا تشغل به نفسك، ولا تعنها بالرجاء في وفائه . فإن دفعت إلى محبته ضرورة فعدّه ابن ساعته، واستأنفه كل حين من أحيانه بحسب ما تراه من تلونه . . ."

وحين يرى الدونجوان ضالته:

"فلا يصبر عنها، ويحيق به من الاغتمام والهمّ ما يكاد أن يأتي عليه حتى يملكها، ولو

حال دون ذلك شوك القتاد ، فإذا أيقن بتصيرها
إليه عادت المحبة نفاراً ، وذلك الأنس شروداً ،
والقلق إليها قلقاً منها ، ونزاعه نحوها نزاعاً عنها . . ."(١٨)

وقد أبدع الكاتب المسرحي موليير في رسم الشخصية الدونجوانية في مسرحية "دونجوان"، حيث كتب على لسان دونجوان نفسه، شارحاً سنّة حياته وقيمها وواجباتها، قال:

"ماذا!؟ تريد أن نتقيد بأول حب وننقطع إليه، رافضين، من أجله، العالم، ولا نعود ننظر إلى أي إنسان آخر في الدنيا بسببه؟ جميل منا أن نتباهى بهذا الشرف المزيف، شرف أن نكون أوفياء فندفن أنفسنا إلى الأبد في حب واحد يقتل فينا، منذ الشباب، كل ميل في الاستجابة لأنواع الجمال المختلفة التي نقع عليها. كلا، كلا: الثبات لا يناسب إلا البسطاء والحمقى وحدهم، فمن حقّ كل امرأة جميلة أن تفتننا، كما أن مصادفة التقائنا بواحدة منهن قبل غيرها لا تجرد الأخريات من حقهن في غزو قلوبنا. أما بالنسبة لي، فإن الجمال يهزني ويسحرني أنّى رأيته، فأستسلم بسهولة لقوته الحلوة التي تجذبنا نحوه. إن الحب الذي أكنه لامرأة جميلة لا يجعل قلبي أبداً قادراً على الإجحاف بحق الأخريات. ترى عيني مزاياهن جميعاً وأندفع لأقدم لهنّ ما تفرضه علينا الطبيعة من أتاوة وولاء نحوهن. ومهما يكن من أمر، فأنا لا أستطيع أن أصد قلبي عن أي مخلوق جميل أراه، وحين يطلبه مني الوجه الجميل، أتمنى

---

(١٨) "طوق الحمامة"، ص٧٣-٧٤ .

لو كان لدي ألف قلب لأقدمها له. إن لنزعات النفس المتصاعدة سحرها الذي لا يفسّر، ولذات الحب تكمن كلها في التغيير والتنويع. لا شك أن واحدنا يتذوق متعة ما بعدها متعة: في التغلب على قلب شابة جميلة بالخضوع لها مرة بعد مرة، وفي تأمل التقدم البطيء الذي يحرزه يوماً بعد يوم في هذا الاتجاه، وفي مقاومة حيائها البريء -بالدموع والتنهدات والافتتان- الذي يستصعب التغلب على نفسه قبل الاستسلام، كما يجد متعة عظيمة حقاً في تخطّي العقبات التي تنثرها في طريقه واحدة تلو الأخرى وفي الانتصار على الوساوس التي تتمسك بها إلى أن يقودها بهدوء إلى حيث يريدها أن تذهب. ولكن، بعد أن يتم لنا ذلك، لا يعود هناك ما يشتهى ويطلب، لقد انتهت فتنة هذا الهيام، ونرقد في سكون هذا الحب إن لم يأت شيء جديد يوقظ رغباتنا، ويعرض علينا سحره الجذاب ويدعونا لتحقيق ظفر جديد. باختصار، ما من شيء أحلى من الانتصار على مقاومة امرأة جميلة، ولي فيما يتصل بهذا الأمر، طموح الفاتحين، الذين يسيرون قدماً من نصر إلى نصر، ولا يستطيعون أن يضعوا حدوداً لرغباتهم. أشعر أن قلبي مخلوق لكي أحب العالم كله وأرغب كما رغب الإسكندر أن توجد عوالم أخرى لكي أتمكّن من أن أنقل إليها فتوحاتي الغرامية."(١٩)

ومن أطرف مشاهد مسرحية موليير تصويره لمقدرة الدونجوان على مغازلة فتاتين حاضرتين أمامه في اللحظة نفسها ونجاحه في إقناع كل منهما أنه يعشقها ويهيم بها وسيتزوجها هي دون الأخرى، الأمر الذي يؤدي بشارلوت بأن تلتفت نحو ماتورينا وتقول لها: "ولكنه يعشقني

---

(١٩) "دونجوان"، الفصل الأول، المشهد الثاني.

أنا". فتجيبها ماتورينا: "بل سيتزوجني أنا". بينما يقف خادم دونجوان يرثي لحال كل من الفتاتين المخدوعتين[٢٠]. وقد حقق دونجوان هذا النجاح السريع مع كل من الفتاتين بفضل سرعة حركته ومرونته وطلاقة لسانه. يصوره موليير وهو يهمس عبارات حبه وإغرائه في أذني كل من الفتاتين على التعاقب. يلتفت نحو ماتورينا ليقول لها: "دعيها تظن ما تشاء." ويلتفت بعدها مباشرة إلى شارلوت ليهمس في أذنيها: "دعيها تمنّي النفس بما تريد." ثم يعود ليكلم ماتورينا: "أعبدك." يلتفت إلى شارلوت: "إني ملك لك روحاً وجسداً." لماتورينا: "جميع الوجوه قبيحة بجانب محياك." لشارلوت: "حين يراك الإنسان لا يعود يتحمّل منظر غيرك من النساء."[٢١]

ينبغي أن نلفت الانتباه إلى أن الشخصية الدونجوانية ليست وقفاً على الرجال على الإطلاق. بخلاف الآراء الشائعة والمألوفة حول هذا الموضوع. إنها شخصية نموذجية لا تخضع بحدّ ذاتها لاعتبارات التذكير والتأنيث إلا عرضاً وتجاوزاً ووفقاً للأعراف اللغوية الدارجة. وقد عرف التاريخ شخصيات دونجوانية نسائية مشهورة. وعلى سبيل المثال يذكر أحد الكتّاب الفرنسيين المعاصرين من الذين عالجوا موضوع الحب الامبراطورة مسالينا ويقول إنها الأخت التوأم لكازانوفا والدونجوان[٢٢]. كما أن كتاب الأخوين جونكور عن المرأة الفرنسية في القرن الثامن عشر حافل بالأمثلة عن الدونجوانات ومغامراتهن[٢٣]. كما أن الكتب العربية

---

(٢٠) الفصل الثاني ، المشهد السادس

(٢١) الفصل الثاني ، المشهد الخامس .

(٢٢) الفصل ٢٤ ، Benois, Hubert, De l'Amour, Paris, 1952

(٢٣) E.& J. de Goncourt, Les Femmes au XVIIIe Siècle, Paris, 1864

حافلة بأقاصيص نساء كنّ على جانب كبير من الثقافة والفتنة والذكاء يتحدثن عن مغامراتهن الجنسية والغرامية. ومهما بحثت لن أجد وصفاً لشخصية الدونجوانة أفضل من الوصف الذي ضمنه الجاحظ في الأسطر التالية حيث يقول في رسم شخصيتها:

" . . لا تكاد تخالص في عشقها ، ولا تناصح في ودها ، لأنها مكتسبة ومجبولة على نصب الحبالة والشرك للمتربطين ليقعوا في أنشوطتهما . فإذا شاهدها المشاهد رامته باللحظ ، وداعبته بالتبسم ، وغازلته في أشعار الغناء ، ولهجت باقتراحاته ، ونشطت للشرب ، وأظهرت الشوق إلى طول مكثه ، والصبابة لسرعة عودته ، والحزن لفراقه . فإذا أحسّتْ بأن سحرها قد تقلب فيه وأنه قد تغلغل في الشرك ، تزيدّت فيما كانت قد شرعت فيه ، وأوهمته أن الذي بها أكثر مما به منها . ثم كاتبته تشكو إليه هواها ، وتقسم له أنها مدت الدواة بدمعها . وبلت السحاء بريقها ، وأنه سبجها وشجوها في فكرتها وضميرها في ليلها ونهارها . وأنها لا تريد سواه ، ولا تؤثر أحداً على هواه ، ولا تنوي انحرافاً عنه الخ . . ."(٢٤)

(٢٤) في القيان" ، ص٦٩ – ٧٠

وإذا كان دونجوان موليير سريع الحركة يتصف بالمرونة وطلاقة اللسان وقادراً على مغازلة فتاتين معاً والنجاح في إغوائهما، فإن دونجوانة الجاحظ تفوقه بدرجات من حيث خفتها ومرونتها وسرعة حركتها وقدرتها على مغازلة أربعة رجال في آنٍ واحد والفوز بقلب كل واحد منهم وكأنه هو حبيبها الأوحد. يستمر الجاحظ في وصفها قائلاً:

"وأكثر أمرها قلة المناصحة، واستعمال الغدر والحيلة في استنطاف ما يحويه المربوط والانتقال عنه. وربما اجتمع عندها من مربوطيها ثلاثة أو أربعة على أنهم يتحامون الاجتماع، ويتغايرون عند الالتقاء، فتبكي لواحد بعين، وتضحك لآخر بالأخرى، وتغمز هذا بذاك، وتعطي واحداً سرّها والآخر علانيتها، وتوهم أنها له دون الآخر، وأن الذي يظهر خلاف ضميرها، وتكتب لهم عند الإنصراف كتباً على نسخة واحدة، تذكر لكل واحد منهم تبرمها بالباقين وحرصها على الخلوة به دونهم."(٢٥)

لا شك أن القارئ لاحظ الاتفاق شبه التام بين وصف كل من الجاحظ وابن حزم وموليير لطبيعة الشخصية الدونجوانية وسنّتها في العشق والنزعة التي تمثّلها في الحب. وسأوجز فيما يلي بعض خصائص الدونجوان الرئيسية كما اتضحت لنا:

---

(٢٥) "في القيان"، ص٧١–٧٢.

١) إنها شخصية تتصف بالتقلب السريع والاستجابة المباشرة للمثيرات العاطفية والغرامية المحيطة بها بغية إبقاء الحب في مستوى العشق العنيف والانفعال الحاد. والعشق بالنسبة إليها يمر في مراحل ثلاث وصفها الجاحظ بقوله: "له (أي العشق) ابتداء في المصاعدة، ووقوف على غاية، وهبوط في التواليد إلى غاية الانحلال ووقت الملال."[(٢٦)] وقد رأينا كيف بيّن موليير أنه حين يقف العشق على غايته يدخل في طور الإنحلال ويدب فيه الملل، فيعمل الدونجوان ما بوسعه لإزالة هذه الأحوال -وهي من أعظم الشرور التي يمكن أن تحلّ به- بإعادة الكرّة فيسعى دوماً وراء الجديد ليعشقه وينعش حبه به، لذلك نراه يرفض الوفاء رفضاً باتاً. فالدونجوانة "لا تخالص في عشقها ولا تناصح في ودها"، على حدّ وصف الجاحظ ، كما أن انقلابها على الود بقدر تسرعها إليه، على حد قول ابن حزم.

٢) ينفض الدونجوان يده من شريعة الامتداد ويعارض جميع قيمها ومعاييرها ويرفض كبتها وقمعها لسورة العشق ويهزأ من مؤسساتها الاجتماعية الرئيسية وخاصة الزواج والروابط العاطفية الدائمة المستقرة. وهذا المعنى متضمن في أوصاف الدونجوان التي استشهدنا بها. وبالمقابل، فإن شريعة الامتداد، بمؤسساتها وقيمها المحافظة، تهاب الدونجوان وترفضه بدورها وتعتبره فاسقاً منحلاً يجري وراء ما تمجه الأخلاق وتحرّمه الأديان وتتنبأ له بأوخم العواقب إن كان في هذه الدنيا أو في الحياة الأخرى. ويعبر الخادم في مسرحية موليير عن وجهة نظر شريعة الامتداد حين يصف سيده ويطلق الحكم عليه من وجهة نظر القيم السائدة والشرائع المعمول بها فيقول:

---

(٢٦) "في القيان" ، ص٦٧ .

"لكن ، أقول لك من باب التحوط ، أن سيدي دونجوان ، هو أكبر فاسق عرفته الأرض : إنه مسعور ، وكلب ، وشيطان ، وزنديق ، لا يؤمن بالنعيم ولا بالجحيم ، ولا بالشيطان ، يعيش هذه الحياة وكأنه متوحش حقيقي . يسد أذنيه دون جميع النصائح التي يمكن أن تقدم إليه ، ويحكم على معتقداتنا كلها بأنها من خرافات العجائز . تقول لي أنه تزوج سيدتك : صدقني وعشقه ، كأن يتزوجك أنت معها ، ويتزوج كلبه وقطه أيضاً . . لابد أن غضب السماء سيسحقه في يوم من الأيام ."(٢٧)

ونلفت الإنتباه إلى أن الخادم، في مسرحية موليير، يقوم بدور مهم جداً بالنسبة لشخصية دونجوان نفسها، ويتمثل هذا الدور في شخصية العاذل كما سمّاها العرب. العاذل هو صديق العاشق الذي ينصحه ويزجره من وجهة نظر شريعة الامتداد والقيم السائدة والمصلحة العامة، وباسم التعقّل والاعتدال. لذلك تتيح لنا شخصية العاذل، أي الخادم في مسرحية موليير، فرصة المقارنة المباشرة بين ما يمثله الدونجوان من نزعة الحب نحو العنف والحدة من ناحية، وما تمثله دعوة العاذل من نزعة الحب المضادة نحو الهدوء والاستقرار والوفاء والاتزان. كما أن شخصية الدونجوان تحتاج إلى العاذل لتؤكد نفسها دوماً بعصيانه المستمر وتحدي جميع نصائحه وخرق القيم والمعايير والواجبات كافة التي يمثلها. وقد فطن ابن حزم إلى هذا

---

(٢٧) "دونجوان" ، الفصل الأول ، المشهد الأول .

التفاعل الحركي بين العاشق والعاذل. أو بين ما تمثله شخصية الدونجوان وما تجسده شخصية الخادم، فوصفه بكل دقة على النحو التالي:

"ولقد رأيت من اشتد وجده وعظم كلفه حتى كان العذل أحب شيء إليه، ليرى العاذل عصيانه ويستلذ مخالفته، ويحصّل مقاومته للائمة وغلبته إياه. كالملك الهازم لعدوه والمجادل الماهر الغالب لخصمه . . . وربما كان هذا المستجلب لعذل العاذل بأشياء يوردها توجب ابتداء العذل."(٢٨)

أي يستجلب العاشق العذل على نفسه عمداً ليشعر بنعمة التحدي ونشوة الفوز. وترك لنا ابن المقفع في "الأدب الكبير" نصاً يعبر فيه بصراحة ووضوح عن نظرة شريعة الامتداد إلى الشخصية الدونجوانية فكتب في ذمها وتسفيهها مايلي:

" . . إعلم أن من أوقع الأمور في الدين، وأنهكها للجسد، وأتلفها للمال، وأضرها بالعقل، وأزراها للمروءة، وأسرعها في ذهاب الجلالة والوقار، الغرام بالنساء."(٢٩)

ولاشك أن ابن المقفع على حق، من وجهة نظر القيم التي يمثلها، إذ أن الدونجوان لا يقيم وزناً للدين ولا يهتم بتوفير المال ولا يتعرف على العقل والمروءة والوقار إذا كانت عقبات تمنعه عن تحقيق ما يصبو إليه وما ينشده قبل كل شيء في هذه الحياة.

---

(٢٨) "طوق الحمامة"، ص٤٧ -٤٨.

(٢٩) "الأدب الصغير والأدب الكبير"، مكتبة البيان، بيروت، ١٩٦٠، ص١٢٧.

٣) ينبغي علينا أن نميز بكل وضوح بين الشخصية الدونجوانية من ناحية وبين شخصية من تتيح له ظروفه الخاصة الاستمتاع "بالحب" في أي ساعة يريد ووفقاً لأمره ومشيئته. حين نقرأ في كتب التاريخ أن الخليفة المتوكل، مثلاً، وطئ أربعة آلاف جارية فإن هذا لا يعني أنه كان دونجواناً من الطراز الأول بل يعني أنه كان مجرد فاجر فحسب. وحين تخبرنا الروايات أن الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك تمتّع بالنساء حتى ملّهن فقال: "أتيتُ النساء حتى ما أبالي امرأةً أتيت أم حائطاً"(٣٠)، لا تعني هذه الرواية أبداً أن هشاماً كان شخصية دونجوانية لا يشق لها غبار بل تعني أنه كان مجرد فاسق لا أكثر. لا يمكن للشخصية الدونجوانية أن تتصف بهذا التبلد في الحس لأنها ما لم تبقَ دوماً مرهفة الشعور، ذواقة للرحيق الكامن في كل لحظة من لحظات مساعيها فقدت كل مبرر لوجودها. تختلف تجربة الدونجوان عن وضع هؤلاء الخلفاء الفساق وأمثالهم في أن الثمرة التي يظفر بها لا تأتي إليه طائعة خاضعة لا حول لها ولا قوة أمام سلطانه وجبروته، وإنما تأتي نتيجة ظفر حقيقي يحرزه بجهوده ومساعيه ومخططاته. وبينما نرى، من ناحية، أن أمر السلطان لا يعصى، نجد أن جهود الدونجوان مهددة باستمرار بالفشل والهزيمة، وإن لم تكن كذلك فلا معنى إذن لأي انتصار يحرزه أو فوز يحققه، إذ لا انتصار حيث يكون النجاح مضموناً سلفاً ضمانة تامة.

لذلك لا داعي للدهشة حين نلاحظ أن لغة العشق تشبه لغة الحرب والصراع وتستخدم الكثير من استعاراتها وتشبيهاتها. يرى الدونجوان نفسه وكأنه في "معركة" ضد الخصم المعشوق "فيستنفر" كل طاقاته

---

(٣٠) صلاح الدين المنجد ، "الحياة الجنسية عند العرب" ، بيروت ، ١٩٥٨ ، ص٤٢ .

"لخرق خطوط دفاع الحبيب المتتالية"، وهو يريد تخطي جميع العقبات والحوائل التي ينشرها المعشوق في طريق "تقدمه". لذلك يقوم الدونجوان "بحملة مركزة" على "مواقع المعشوق المحصنة"، وقد يرتد مراراً ثم يعيد الكرةّ "ليحاصره ويطوقه ويضربه بسهامه". إلى أن يحرز النصر و"يستسلم" الحبيب الذي يصبح "أسيراً" كما يتحول المنتصر بدوره إلى أسير للمأسور أصلاً.

ومن هنا يتبين إلى أي حدّ جانب ابن المقفع الصواب في فهمه لحقيقة العاشق والغاية التي يصبو إليها حين كتب في تسفيهه:

> "ومن البلاء على المغرم بهنّ أنه لا ينفك يأجم (أي يكره) ما عنده وتطمح عيناه إلى ما ليس عنده منهن. وإنما النساء أشباه. وما يرى في العيون والقلوب من فضل مجهولاتهن على معروفاتهن باطل وخدعة. بل كثير مما يرغب عنه الراغب مما عنده أفضل مما تتوق إليه نفسه منهن."(٣١)

يفترض ابن المقفع أن غاية الدونجوان هي مجرد امتلاك المرأة الحسناء مما يجرده عن كل عذر أو مبرر لتفضيل المجهولات منهن على ما عنده من النساء مادمن متشابهات وامتلاك الواحدة منهن يؤدي إلى ذات النتيجة التي يؤدي إليها امتلاك الأخرى وهي الاكتفاء والرضا. غير أن الدونجوان في الحقيقة، لا يأجم ما عنده منهن أبداً، وإنما تشن نفسه من أحوال الضعف والانحلال التي تطرأ على عشقه وانفعالاته بعد

(٣١) "الأدب الصغير والأدب الكبير"، ص١٢٧ .

تحقيق غرضه منهن (والشيء ذاته يقال بالنسبة للدونجوانة). وليتمكن من أن يعيد لعشقه توتره وعنفه يلجأ إلى البحث عن "حصن" جديد يجهد لاقتحامه من أجل النشوة التي يعيشها في ساعة الانتصار. أما فضل مجهولاتهن على معروفاتهن، بالنسبة للدونجوان ولطموحه الدائم نحو المجهولات منهن، فلا يكمن في ظنه الخادع أن المجهولات أعظم جمالاً وفتنة مما ظفر به من النساء، بل فيما يقترن به المجهول من غموض وسرية وصعوبة توفر له فرصاً كبيرة لتجديد نفسه وعشقه وتنويع انفعالاته. إن حبه لا يحيا وينتعش إلا في وجه التحديات والمفاجآت والأزمات، والتراوح بين الحضور والغياب، بين التمنع والقبول، والمعروفات منهن لا يوفرن له هذه العناصر البتة التي لولاها لفقدت شخصيته معناها ومغزاها. بعبارة أخرى، إن عملية الإعداد للغزو العاطفي، بالنسبة للدونجوان، والتمتع بتنفيذها خطوة فخطوة تشكّل القسم الأهم من تجربته، فالوسيلة عنده هي بأهمية الغاية، بل هي تغذي الغاية وتجعلها أشهى وأعذب وأطيب مما لو كانت متوفرة بدون أي عناد أو مقاومة، وهذا تماماً ما أهمله ابن المقفع في وصفه للعاشق المتقلّب وتسفيهه له، وما عجز عن فهمه وإدراكه في شخصية الدونجوان.

٤) ذكرنا أكثر من مرة أن الشخصية الدونجوانية تجسد بُعْدَ الاشتداد في الحب وتشبع نزعاته وتكون بذلك قد اختارت التنازل عن كل ما يمت لبعد الامتداد بصلة. غير أن نزعات الثبات والبقاء التي يتصف بها الحب تظل ماثلة في نفسه وإن كانت في حالة حرمان شبه تام وكبت مستمر وصد دائب في سبيل تحقيق نزعات وميول أخرى لا تنسجم معها في حياة الدونجوان. وبما أن متطلبات بُعْد الامتداد في الحب

ورغباته تضغط على وجدان الدونجوان، برفق أحياناً وبعنف أحياناً أخرى، مطالبة بحقها في الاكتفاء داعية إياه لإعطائها قسطها من الإشباع باعتبارها جزءاً من نفسه وأحاسيسه ومشاعره، يعاني الدونجوان من حالة شعورية ينطبق عليها وصف الفيلسوف الألماني هيغل للحالة التي دعاها "بالوجدان الشقي"(٣٢).

الوجدان الشقي هو السوسة التي تنخر بنيان الشخصية الدونجوانية وتنغّص عيشها باستمرار. ويتجلى وجدانه الشقي بإحساسه بالعجز عن إشباع نزعات الحب نحو الدوام والاستقرار عن طريق خلع نوع من الثبات والاستمرار على اللحظة العابرة التي يذوق فيها طعم النشوة القصوى في العشق. أي يأتي شقاؤه نتيجة اضطراره للتضحية المستمرة بناحية جوهرية من نواحي الحب الذي يعيشه، وعلى هذا الأساس يتكون إحساسه المبهم بمفارقة الحب الكبرى وما تولده من ألم نفسي مستمر. لذلك لابد للدونجوان من ساعات يشعر فيها بالإعياء والخيبة وعدم جدوى بحثه الدائم عن تجارب خاطفة سرعان ما تتبدى وتذهب أدراج الرياح ليعيد إحياءها من جديد مرة بعد مرة وهكذا دواليك إلى أن تنتهي حياته بصورة من الصور. حينئذ قد تتوق نفسه إلى بعض من الوضع المناقض لوضعه أي إلى حياة الاستقرار والوفاء والهدوء ظناً منه، في ساعات إعيائه وألمه، بأنها قد توفر له نوعاً من الخلاص والراحة والرضا التي يفتقدها بطبيعة نمط حياته الحركية المتنقلة. غير أن هذا التوق إلى النقيض لا يمكن أن يتحقق إلا بمحو شخصيته الأصيلة وإزالة خصالها الدونجوانية، وعلمه بهذه الحقيقة يزيد في شقائه الصامت والمستمر

---

(٣٢) The Unhappy Consciousness.

ويجعله يمعن في يأسه واستهتاره. في الواقع، لا تخدع الشخصية الدونجوانية الأصيلة نفسها بالنسبة لوجدانها الشقي لئلا تقع في الخطيئة التي دعاها سارتر بالـ: "Mauvaise foie" إنها لا توهم نفسها بإمكان الجمع بين المتناقضات، أي بإمكان خلع الدوام والاستمرار على التجربة الغرامية العنيفة لتبقى دوماً على عنفها وانفعالها. لقد وقع الشاعر العربي في هذه الخطيئة حين قال:

نَقِّلْ فؤادَكَ حيثُ شئتَ من الهوى
ما الحبُّ إلاَّ للحبيب الأوَّلِ

لأنه حاول تخطي الوجدان الشقي بالجمع بين الدونجوانية من جهة والوفاء الدائم من جهة أخرى في وجدان واحد وكأنه يريد التوسط بين حالتين لا وسط بينهما وأن يتحايل للتوفيق بين نقيضين لا انسجام بين طرفيهما. أراد الشاعر خلق نوع من الوفاء المقنع أو المزيف الذي يتسلل إلى صلب الدونجوانية لتعزية الوجدان الشقي كأن يقول الدونجوان لنفسه مهوناً عليها محنتها: باستطاعتي أن أرضي نزعة الاستمرار والبقاء في الحب عن طريق الوفاء (المزعوم) للحبيب الأول بينما تكون نزعة الاشتداد قد اكتفت بتنقيل الفؤاد حيث شئنا من الهوى. إلاَّ أن هذا النوع من التوفيق بين الأحوال المتعارضة لا يتحقق إلاَّ على مستوى الخيال والشعر والوهم فحسب.

ومن علامات الوقوع في الخطيئة التي ذكرها سارتر والتأثر بالوفاء المزيف الذي ذكره الشاعر أن يدأب العاشق على اختيار معشوقاته من النساء (أو الرجال في حالة العاشقة) بالقياس إلى مجموعة من الصفات

الثابتة المشتركة بينهن واهماله غيرهن ممن لا يتصفن بها. فيعشق بذلك عدداً من النساء تمثل كل واحدة منهن نسخة عن سابقاتها بكونها تكراراً لأنموذج واحد يطلبه فيهن جميعاً. أي يكون وفياً للصفة الكلية المشتركة بينهن وليس لأي مثل جزئي تتعين فيه هذه الصفة. وقد أعطانا ابن حزم مثالاً بسيطاً عن هذه الظاهرة حين كتب عن نفسه:

"وعني أخبرك أني أحببت في صباي جاريةً لي شقراء الشعر فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر ، ولو أنه على الشمس أو على صورة الحسن نفسه . وإني لأجد هذا في أصل تركيبي من ذلك الوقت ، لا تؤاتيني نفسي على سواه ولا تحب غيره البتة ، وهذا العارض بعينه عرض لأبي رضي الله عنه وعلى ذلك جرى إلى أن وافاه أجله ."(٣٣)

أما الدونجوان الأصيل فيحارب هذه النزعات نحو الوفاء المقنَّع ونحو تمييع موقفه الأساسي من شريعة الامتداد واختياره في إهمال رغباتها ونزعاتها في الحب لأنه يريد اقتناص العنصر الفريد في كل لحظة وتجربة ولا يدين بأي ولاء للنماذج المجردة أو الصفات الكلية مهما تكررت في الأمثلة الجزئية الحية. وقد صدق الشاعر، بالنسبة لحقيقة الدونجوان، حين أنشد بهذا الصدد:

دَعْ حبَّ أول من كلفتَ بحبه
ما الحبُّ إلاّ للحبيب الآخرِ

(٣٣) طوق الحمامة" ، ص٢٨ .

مـــا قـــد تولّى لا ارتجـــاع لطيـــبـــه

هل غـــانبُ اللذّاتِ مـــثلُ الحـــاضـــرِ

بعد هذه المعالجة لشخصية الدونجوان باعتبارها تجسيداً لطرف من طرفي ما سمّيته بمفارقة الحب الكبرى أنتقل الآن إلى رسم الشخصية المقابلة التي يتجسد فيها الطرف الآخر من المفارقة أي طرف الدوام والبقاء وهي حياة الزوجين الوفيين التقيين التقليديين اللذين يعيشان وفقاً لشريعة الامتداد ومؤسساتها وقيمها ومعاييرها والتزاماتها الفردية والجماعية. إذا كان الدونجوان هو الإنسان المتهيء دوماً، المتوثب لكل فرصة تمر به في الحياة، فإن الزوج الوفي المثالي (أو الإنسان المرشح لأن يكون هذا الزوج) هو الإنسان الذي ينتقل برتابة قاتلة من "العمل إلى البيت ومن البيت إلى العمل" بدون الالتفات إلى جوانب الطريق. هذه هي أهم فضائله التي يتحدث بها المجتمع حوله والتي تجعله زوجاً مثالياً في نظر العروس وأهلها.

أما الفتاة المرشحة لأن تكون الزوجة الوفية التقية فهي بسيطة ساذجة طاهرة بريئة حتى من بعض العلم وتجارب الحياة. من شيمها أنها مهووسة إلى حد المرض بكل ما يمتّ "للفضيلة" و"العفة" والحياء بصلة حتى تكاد أن تجف ينابيع الحياة من جسمها وعروقها. تؤمن إيماناً لا يتزعزع بفضل زوجها عليها وسمو مرتبته على مرتبتها، لذلك ينبغي أن تكون مطيعة وأمينة ومحافظة على حقوق زوجها وماله وعرضه. ترتعد خوفاً من الحرية والمجتمع ومسؤوليات الحياة بمعناها الواسع. عاشت حياة الكبت والحرمان قبل الزواج ولا تزال تعيشها، بمعان عديدة، حتى بعده. حُرِّم عليها التعبير عن عواطفها بصراحة، أو إبداء أي اهتمام عاطفي

واضح بالآخرين من غير بنات جنسها فانطوت على نفسها لتخرج على الدنيا بلغة خرساء قوامها التعبيرات الصامتة واللفتات والهمسات والبسمات والعبسات والكنايات والتوريات، والكركرة المبتذلة. أما كيف يفترض في الزوج أن يعشق مثل هذه الزوجة طوال سني حياتها وكيف يفترض فيها أن تحبه حباً جماً وفياً إلى أن يفرق بينهما الموت فهو أمر لم يستطع فهمه عقل أو تفسيره منطق بعد. ومع ذلك يقال لنا دوماً أن هذين الزوجين هما عماد الخلية الأساسية في نسيج المجتمع ويمثلان الحياة الزوجية المثالية بكل ما تعنيه هذه المؤسسة بالنسبة لاستقرار المجتمع واستمراره.(٣٤)

لاشك أن حياة الزوجين المتحابين الوفيين (ولو على طريقة مكرهاً أخاك لا بطل) تفي بمتطلبات بُعْدِ الامتداد في الحبّ وتؤمن له رغبته في البقاء بقدر الإمكان بغض النظر عن شحوبه وضعفه من حيث الاشتداد. غير أن من يمعن النظر في هذه الرتابة السطحية والهدوء الزائف الذي يغلف الحياة الزوجية يكتشف أن نزعات الحب الأخرى نحو العنف والانفعال تنخر في قلب كل من الزوجين بطرق ملتوية مستترة لا تتكشف إلاّ لمن تعلم كيف يستبطن نفسه بدقة وموضوعية أو لمن قرر تسليم نفسه للطبيب النفساني وطرقه في التحليل وسبر أعماق النفس وطبقات شعورها اللاواعية. ونحن لا نأتي بجديد إن قلنا إن هذه النزعات العاطفية المكبوتة متربصة باستمرار تتحيّن الفرص لتظهر

(٣٤) ليس بخافٍ على القارئ أن هذا الوصف للزوجين المثاليين بالقياس إلى شريعة الامتداد مستمد من أوضاع اجتماعية معينة وراهنة. وجلي أن وصف ناحية الامتداد في العلاقات العاطفية لا يرتبط بالضرورة بتفاصيل حياة أي مجتمع معين دون غيره.

وتُطالب بقسطها المشروع من الاكتفاء والإشباع. وهي تعمل على تنغيص رتابة الحياة المستقرة بحنين عميق لأشياء غامضة بعيدة غريبة تخرج بنا عن المألوف والمطروق والمتكرر. إنها الرغبة الدفينة في تحقيق تجربة تهز كياننا، وتجعلنا نلامس ينابيع الحياة المتفجرة والعاطفة المتدفقة، فتحملنا إلى ذرى ومرتفعات من النشوة لا نفكر بها إلاَّ في أحلام اليقظة. إنها توق خفي للتحرر من القيود التي تجعل هذا الإنسان يسير من بيته إلى عمله ومن عمله إلى بيته مطأطئ الرأس، وتجعل زوجته تجهد برتابة جوفاء مثل رتابة عمل النحلة في الخلية. إنها توق للتخلص من الشعور بالفراغ والنقص والروتين الأجوف الذي يتولد في حياة لا إثارة فيها ولا توتر ولا انفعال، ولا زخم ولا كثافة في الحب والعاطفة. هذا هو الثمن الذي يدفعه كل من يختار شريعة الامتداد في الحب ويطلب استقراره وثباته، كما ينطوي هذا الثمن على ظواهر أخرى تتولد في الشخص مثل العصاب والضيق والحصر والتطلع الخفي اللاواعي إلى تجربة العشق والانفعال العنيف على أنها الخلاص بذاته الذي سينقذه من قيوده وينقله إلى عالم خيالي كله اكتفاء ورضا وحرية وبهجة، حيث تبقى الأحاسيس تلقائيةً عفويةً متدفقةً وحيث لا يحرم الحب ولا يملّ ولا يشبع.

هذا هو التوق الذي شعر به فجأة فون اشنباخ بطل قصة توماس مان "موت في البندقية". كان فون اشنباخ أديباً ممتازاً ومفكراً مشهوراً ومكرماً في بلاده. قضى حياته في الإنتاج الفكري الرفيع والعمل المستمر مخضعاً نفسه لنظام صارم في الحياة تسيطر عليه قيم الاتزان والتعقل والهدوء وبرودة المزاج والعاطفة. عاش اشنباخ في ميونيخ "وكان

الوقار، الذي عرفت به الطبقة الوسطى، يجلل حياته كما يليق، في بعض الحالات، بالحياة المكرسة للفكر"[٣٥] و"كان يميل إلى كل ما هو مستقر ومحدود، وإلى كل ما هو جميل عرفاً وتقليداً، وإلى كل ما هو محافظ وشكلي ومنتهي التكوين تقريباً."[٣٦] هكذا وصف مان شخصية اشنباخ. وفي يوم من أيام الربيع استفاقت العواطف المكبوتة في أعماق نفسه لتثبت له حقها في الوجود والحياة وتبين له أن ناحية مهمة جداً من تكوينه كإنسان قد أهملت وقمعت في سبيل ناحية أخرى سيطرت على نفسه وحياته حتى اليوم. شعر اشنباخ في ذلك اليوم على حد قول المؤلف:

> "بتأثير جديد في نفسه وتنبه بدهشة لإحساس غريب بالانشراح : كان نوعاً من القلق الذي أخذ يجول في نفسه ، أو هو توق يافع لأماكن بعيدة نائية . بدا إحساسه حياً جديداً ومنسياً في رقاده الطويل ، حتى أنه توقف فجأة وأطرق ليمعن النظر في ماهية هذا الانفعال ومغزاه ."[٣٧]

لقد رفعت العواطف والانفعالات، التي استعبدها اشنباخ وقمعها في السابق، رأسها لتنتقم لنفسها منه[٣٨]. ونجح اشنباخ في بادئ الأمر بتهدئة الانفعال الذي استأثر به وعصف بأحشائه بترجيح كفة العقل

---

(٣٥) Great German Short Novels and Stories, Modern Library, New York, 1952, ص٤١٢

(٣٦) المرجع السابق ، ص ٤١٢ .

(٣٧) المرجع السابق ، ص٤٠٢ .

(٣٨) المرجع السابق ، ص٤٠٦ .

واستخدام قوة ضبط النفس التي تعوّد على ممارستها منذ أيام شبابه.(٣٩) ومع ذلك كانت النتيجة صراعاً دامياً بين هاتين القوتين تم النصر فيه للعواطف والانفعالات التي اندفعت فجأة، وبعد رقاد طويل، لتقوض أركان شخصية اشنباخ العتيقة وتمنحه، قبل موته، رؤية "دايونيزية" نابضة للكون والحياة ما كان ليحققها لو بقي على سيرته الأولى. كتب مان في وصف حاله: "كان ثملاً، وتبعت خطاه الشيطان الذي يبتهج بدوس العقل وكرامة الإنسان تحت قدميه."(٤٠) ونلاحظ هنا أن هذا الصراع يذكرنا بما كتبه ابن حزم عن النزاع المستمر في روح الإنسان بين قطبين متعارضين هما "العقل" و"النفس". إنها قصة المأساة الواحدة التي يؤدي إليها هذا التناقض مهما اختلفت التسميات: كان نزاعاً بين "العقل" و"النفس" بالنسبة لابن حزم، وبين ميونيخ والشمال الأوروبي البارد من ناحية وبين البندقية والجنوب الدافئ من ناحية أخرى عند توماس مان، وبين أبولو ودايونيسيوس عند اليونان، أو بين فيدرا العاشقة لابن زوجها وبين هيبوليت نفسه، الزاهد المتقشف الذي عاش حياة العفة والسيطرة على النفس، كما تبين مسرحية يوربيدس المشهورة "هيبوليت"...(٤١)

---

(٣٩) المرجع السابق، ص٤٠٥ .

(٤٠) المرجع السابق، ص٤٧٥ .

(٤١) قارن ذلك بالقول التالي لفاوست في رائعة غوته المعروفة :

Two souls, alas, are housed within my breast,
And each will wrestle for the mastery there.
The one has passion's craving crude for love,
And hugs a world where sweet the senses rage;
The other longs for pastures fair above,
Leaving the murk for lofty heritage.
(Faust: Part One, "Outside the City Gate")

لا يؤدي هذا النزاع إلى المأساة إلاّ في حالاته القصوى أما في بقية الأحوال فيخفف الإنسان حدته بنقل نوازع الانفعال المكبوتة في النفس إلى مستوى الخيال والحلم والإنتاج شبه الفني فيوفر لنفسه متنفساً لطاقاتها الحبيسة. وتكمن هذه الحقيقة خلف ظاهرة انشغال القصص الشعبي، الذي مر ذكره، انشغالاً شبه مرضي بقضايا الجنس والمغامرات الغرامية الخيالية العنيفة التي تخرج عن حدود المعقول والممكن وتقترب من خوارق الأعمال وعجائب الأفعال. كما تكمن خلف استغراقها في وصف العلاقات الغرامية المحرمة بالقياس للقيم الأخلاقية والدينية السائدة التي يعيش بموجبها جميع من يقبلون بشغف على قراءة هذه القصص. وليس بخافٍ على أحد أن القصص الشعبي مثل "ألف ليلة وليلة" و"الحكايات العجيبة" مليئة بالأقاصيص التي تروي أحداث علاقات غرامية تبدو مثيرة لأنها تتعارض مع العرف الأخلاقي السائد والشريعة التي تسيطر على حياة المجتمع ومفاهيم الحلال والحرام المعمول بها. لذلك نجد الزوجات يخنَّ أزواجهن مع عشاقهن أو عبيدهن، والفتيات العذارى يلاقين الشباب من عشاقهن سراً، والرجال يهجرون زوجاتهم ويسعون إلى عشيقاتهم خفية، وجميعهم يعمل على تحقيق رغباته الجامحة المتدفقة بشتى الأساليب بما فيها الاحتيال والكذب والتخدير والفرار الخ... لا ريب أن طغيان هذه الموضوعات على القصص الشعبي المذكور يتجاوب مع رغبات عميقة في نفس كل إنسان يعيش حياة المجتمع الرتيبة وتتوق نفسه لتحقيق التجربة العاطفية العنيفة، ولكن ما العمل حين يكون كل شيء حوله واقفاً له بالمرصاد ليمنعه من السير على هذه الطريق الوعرة والخطرة، فيجد في هذه القصص

والحكايات بديلاً خيالياً عن التجربة الممنوعة عرفاً وتقليداً، ويشارك بنفسه مع هؤلاء الأبطال في تحقيق معجزات غرامية يحلم بها وهزات عاطفية تحنّ نفسه إليها بدون وعي منه. فيشعر بالنتيجة بشيء من الارتياح المؤقت المقرون بالمرارة والخيبة.

في مجتمع يجعل من الوفاء إلزاماً وواجباً آلياً، ومن البتولة فضيلة أكبر من الحياة، ومن العفة خصلة تخمد الحيوية في الإنسان، ومن الاختلاط الجنسي خطيئة ما بعدها خطيئة، لا يستغرب أن يقدم أهله على هذا النوع من القصص الشعبي وغير الشعبي وكأنهم يريدون الفرار من حقيقة رهيبة لا يمكن ذكرها أو مفاتحة أحد بأمرها كما لا يستغرب إن هم شاركوا في أحلام يقظتهم أبطالها وتمنوا (بشيء من الحسد) في أعماقهم لو كان باستطاعتهم مجاراة هؤلاء الأبطال بأعمالهم الكبيرة وفتوحاتهم الغرامية، وإن هم اتصفوا بالفضول الزائد فيما يتعلق بأمور الناس العاطفية، والتحديق الطويل في كل ما يخرج، ولو قليلاً، عن المألوف من الأمور التي لها أدنى صلة بتحريك العواطف الإنسانية. وواضح أن ما ذكرته عن القصص الشعبي ينطبق، إلى حد كبير، على بعض أنواع الأفلام السينمائية التي يكثر الإقبال عليها عندنا وعلى أنواع من القصص والروايات العاطفية المقروءة اليوم في مجتمعنا. ومن ناحية أخرى، نلاحظ أن لهذا النوع من القصص والإنتاج الخيالي فوائده الاجتماعية، إذ أنه يرفع النوازع والميول النابعة من القاع إلى مستوى الخيال والحلم والمشاركة الوجدانية فيمتص عنفها واندفاعها ونقمتها ويعمل بذلك على ضمان شريعة الامتداد وصيانتها بمؤسساتها المحافظة وأوضاعها القائمة على الاستقرار والدوام.

درسنا نموذجين متعارضين من الشخصيات يجسد كل منهما ناحيةً أساسيةً في طبيعة الحب ومفارقته الكبرى. ومن نافل القول أن هذين النموذجين ضرب من التجريد الذي لا ينطبق (ولا يمكن أن ينطبق) انطباقاً تاماً على أي من أفراد الجنس البشري، إلاَّ أنهما يتضمنان حقائق جوهرية عن حياة الإنسان العاطفية ويعبران عنها. فلا الدونجوان يستطيع أن يتحول إلى زوج بدون أن يفقد نفسه وطابعه المميز ولا الزوجان الوفيان يستطيعان الانقلاب إلى دونجوان ودونجوانة بدون أن يفقدا رابطتهما الجوهرية ووجودهما السابق. هذا على مستوى التجريد والنماذج، أما الإنسان الذي يعيش هذا الصراع ويعاني في أعماق نفسه من تناقضاته يجد نفسه بأكملها واقعةً تحت وطأة التوتر المستمر بين نزعات كل من هذين القطبين المتفارقين في طبيعة العاطفة وحياتها وما يستتبعه هذا التوتر من حصر وقلق وعُصاب واضطراب. وقد صوّر لنا الكاتب المسرحي بيار كورناي هذا النزاع الخفي في النفس الإنسانية في مسرحية تدور حول حب آليدور لانجيليك. حين تطغى على آليدور نوازع الحب نحو الاستمرار والاستقرار والطمأنينة والهدوء يميل إلى الزواج من حبيبته ويرفض هيامه العنيف بها ويعدّه ضرباً من الجنون الذي يؤسف له وينبغي التخلص منه والتغلب عليه. يعبر آليدور عن هذا المزاج متكلماً عن العشق الشديد وضرورة السيطرة عليه كمايلي:

"جنون أن نكون عبيداً لما يستأثر بنا ،
وجنون أن نغذي بالحب ما هو ليس رهن إشارتنا ،
أكره الإرغام الذي يفرضه عليَّ ، ولذلك صممت

أن أبقي تطلعاتي طوع إرادتي . متحرراً من أسر الشوق :
طمـوحي هو أن أتقدّ حين أريد وأن أبرد حين يحلو لي ."(٤٢)

غيـر أن مزاجاً آخر يطغي على عـواطفه كلما اقتـرب من الارتبـاط بأنجيليك الوفـية ارتباطاً دائمـاً ومستـمراً فـتثور نوازع العشق والانفعـال في قلبه مرة أخرى ويخاف عليها من الموت والاضمحلال بعد أن يتحول الحب من هبة عفوية متدفقة إلى إلزام زوجي، ويتحول الوفاء إلى تكليف عائلي وواجب اجتماعي. يعبر آليدور عن ثورته بقوله:

"مـــهـــمـــا غـــلا الثـــمـــن ، يجب أن أحطم قـــيــودي
خــوفــاً من أن يذيب الاتحـــاد ســـيطرتي على نفـــسي
وخـــوفـــاً من أن يحـــوّل حـــبـــاً عـــاصـــفـــاً
إلى حب أنـا مـــــديـن بـه لـغـــــيـــــري"(٤٣)

ويتـمثل هذا الصـراع الداخلي الحي أيضاً في شخـصيـة فيـدرا كـمـا رسمـهـا يوربيـدس في مسـرحيـة "هيبـوليت" حيث ذهبت فـيدرا ضـحـيـة لصـراع عنيف عـصف بهـا بين حبـهـا الجـارف لابن زوجـهـا هيـبـوليت من ناحية وبين ولائها لزوجها والأعراف الاجتماعية السائدة والقيم الأخلاقية التي كـانت كلهـا تحرم هذا الحب وترفضـه. ولم تجد فـيدرا مـخرجـاً لهـا إلا بقـتل نفـسـهـا فكانت المأساة التي لم ينج من آثارها أحـد. وكل إنسـان

---

(٤٢) الفصل الأول المشهد الرابع LA Place Royale

(٤٣) المرجع السابق ، اعتمدت رأي Denis de Rougement في تأويل هذه المسرحية .
انظر : Love in the Western World, ص٢٠٠ - ٢٠٤ .

عنده القدرة على ملاحظة نفسه واستبطانها وتفهم نوازعها بشيء من الدقة والموضوعية سيجد شيئاً من الشبه بين نفسه وبين آليدور وفيدرا، وخاصة في محاولات كل منهما المحافظة على اتزانه العاطفي والعقلي في مواجهة الميول المتناقضة التي يحسها بقوة وشدة بغية تجنب دفع التناقض إلى أقصى حدوده خوفاً من المأساة والدمار. ويتحقق له ذلك بالاستمرار في البحث عن مخرج لائق لا يضطره لأن يضحي كلية بنزعة في سبيل الأخرى إن كان ذلك ممكناً.

أي لا يريد هذا الإنسان، في قرارة نفسه، أن يكون دونجواناً فيفقد حتى شبه الاستقرار في الحب فيشقى وجدانه، كما أنه لا يريد أن يكون زوجاً (أو زوجة) وفياً تلاشت من حياته جميع معاني النشوة العاطفية وانفعالاتها العاصفة. لنسترسل قليلاً في وصف وضع هذا الإنسان وأجوائه الداخلية. إنه ربيب شريعة الامتداد وقيمها ومؤسساتها ولكنه من ناحية أخرى، يدرك بوعيه وذكائه نزوع نفسه وتوقها لتحقيق نوع من الحب يهز الكيان ويعلمه معنى النشوة والحياة. وهو يتصوّر الظفر بما تتوق إليه نفسه في الحب على أنه تحقيق لذاته وفرصة له لأن "يعيش" حقاً: أي أن يرتفع إلى مستوى من التوتر والحيوية يجعل وضعه الحالي الساكن يبدو وكأنه الموت بذاته. ولكنه يصطدم بجميع العقبات الداخلية المغروسة في نفسه نشأةً وتربيةً، ويواجه القيود الخارجية التي تكبل تحركات كل فرد في هذا المجال وتفرض الكبت والقمع باسم الأخلاق والاستقرار الخ... ولكنه لا يستطيع أن يخادع نفسه. إنه فخور بينه وبين نفسه بهذه الرغبة في "الحياة"، إذ تبدو له، من هذه الناحية، تجربة فتانة أخاذة مشحونة بروح العطاء والخصوبة والحيوية. إلا أنها تبدو

أيضاً، من وجهة نظر أخرى، تجربة قبيحة شريرة مخربة ومنافية للاستقرار، تعمل على إيلام وشقاء من يهمنا أمر سعادتهم وهنائهم. لذلك يفضل هذا الشقي، ألا يقدم على اختيار حاسم ونهائي لصالح أي من طرفي النزاع، ويكتفي باتخاذ سلسلة من القرارات الصغيرة المؤقتة، وفقاً للظروف والأحوال الآنية، التي تأتي أحياناً لصالح نزعة الاستقرار في الحب وتأتي في أحيان أخرى، لصالح نزعة العشق والانفعال. وهو يحاول بذلك ألا يحرم نفسه نهائياً من ثمرة أي منهما أو من الاكتفاء المؤقت الذي يشعره عند تلبية رغباتهما تباعاً. كما أنه يدرك أن بديله الوحيد عن هذا التأرجح بين السأم والضياع هو أن يحكم بالإعدام على جزء عزيز من نفسه في سبيل الجزء الآخر: فإما أن يحقق الاستقرار الدائم أو الضياع المستمر. والثمن في كلا الحالين باهظ جداً. إن الإنسان الذي لم يعرف طعم التجربة العاطفية الكبرى، ولو مرة واحدة في حياته، لا يستحق إلا الشفقة لأنه لايعرف ما فاته في الحياة. ومن لم تساعده الظروف على تحقيق قدر من المحبة المستديمة الهادئة المستقرة شقي وجدانه وتألم. وحياتنا العاطفية توتر دائم ومستمر بين حالة تستدعي الشفقة وحالة تولد الوجدان الشقي. ويعني هذا التوتر أن يرفض الإنسان الحالة التي يجد نفسه فيها وأن يتوق دوماً للأخرى لأنها تبدو أخف ثقلاً من الحالة التي يعاني منها الآن. لذلك يشعر بالغربة عن كلتيهما كل بدورها، والداعي الوحيد الذي يدعوه للاتجاه نحو الأولى هو اندفاعه الزائد باتجاه الثانية والعكس بالعكس.

لا شك أن الحل المثالي لمفارقة الحب هو ابقاؤه إلى الأبد (أو على مدى الحياة) في أقصى درجة ممكنة من الاشتداد والحدّة فلا يطرأ عليه وهن أو انحلال أو ملال. غير أن الظفر بمثل هذه الحال هو سراب ومحال

شأنه في ذلك شأن سراب الشباب الأبدي وخرافة الحيوية الدائمة أبداً.
وصف ابن حزم الحل المثالي وتعذّر تحقيقه على النحو التالي:

"وما في الدنيا حالة تعدل محبين إذا عدما الرقباء ، وأمنا الوشاة ، وسلما من البين . ورغبا عن الهجر ، وبعدا عن الملل ، وفقدا العذّال ، وتوافقا في الأخلاق ، وتكافيا في المحبة . . . هذا عطاء لم يحصل عليه أحد ، وحاجة لم تقض لكل طالب ."(٤٤)

لذلك، يتولد من مفارقة الحب وهمٌ كبيرٌ يعبر عنه العشاق، في ساعات اللقاء والوصال، بالأيمان المغلظة التي يتبادلونها بالوفاء الأزلي المطلق والاستمرار بالعشق مدى الحياة وفي وجه العقبات جميعها وتقلبات الزمان كافة. أي تشكل أيمان العشاق الوهم الذي يخلقونه حولهم ويعيشون في أجوائه في ساعات النشوة المطلقة ليقنعوا أنفسهم، ولو إلى حين، أنه باستطاعتهم اقتناص لحظات الحب الشاهقة وتثبيتها بعنفها وانفعالها إلى الأبد فلا تضعف ولا تهبط ولا يؤثر فيها الدهر. ولولا هذا الوهم لتسللت الشوائب والمنغصات لتفسد جو العشق الملائكي الذي يعيشه الحبيبان لبضع سويعات. وقد عبّر نوفاليس عن نزوع العشاق إلى الوقوع في هذا الوهم فقال:

"ليت لهب روحك يلتهم جسدي ،
ليتني أبقى معك في عناق سماوي ، ثم
ليت ليلة عرسنا تدوم إلى أبد الآبدين ."(٤٥)

---

(٤٤) "طوق الحمامة" ، ص٦٣ .

(٤٥) ص ٢٢٥ -٢٢٦ .Love in the Western World

ونحن لا نلوم العشاق إن هم وقعوا فريسةً هذا الوهم فهم معذورون. يصف ابن حزم حالة الاتحاد والوصال بين العشاق بقوله:

"وهو حظ رفيع ، ومرتبة سرية ، ودرجة عالية ، وسعد طالع . بل هو الحياة المجددة ، والعيش السني ، والسرور الدائم ورحمة من الله عظيمة . ولولا أن الدنيا دار ممر ومحنة وكدر ، والجنة دار جزاء وأمان من المكاره ، لقلنا إن وصل المحبوب هو الصفاء الذي لاكدر فيه ، والفرح الذي لا شائبة ولا حزن معه ، وكمال الأماني ، ومنتهى الأراجي . . . وأنه لمعجز ألسنة البلغاء ، ومقصر فيه بيان الفصحاء ، وعنده تطيش الألباب . . ."(٤٦)

لا عجب إذن أن يشعر العاشقان في تلك الساعة أنهما خرجا من نطاق صيرورة الزمان ولامسا حالة تذوب فيها المتناقضات والمتنافيات لتجتمع في لحظة مطلقة حققاها مع تجربتهما، فيشعران بحلّ من كل ارتباط، وبأن كلاً منهما كان مجعولاً للآخر منذ بداية الزمان ويرفضان كل ما من شأنه أن يخلع طابعاً نسبياً على علاقتهما فيتوهمان أنه يمكن لحالهما أن يدوم إلى أبد الآبدين. إنهما يعيشان في حالة تمزج الخيال بالواقع، والوهم بالحقيقة، والأحلام بالأشياء. إنها حالة أقرب ما تكون إلى عالم الشعر والغناء واللهو والمرح والأمل والتحرر والانفتاح وصفها بودلير ببضع كلمات:

---

(٤٦)" طوق الحمامة" ، ص٥٩ - ٦٠ .

Là, tout n'est qu'ordre et beauté,

Luxe, calme et volupté.

أما المرارة والخيبة فتأتيان بعد حين حيث يدرك العاشقان أن بقاء هوية الحب مستديمة خالدة مع بقاء شعلته ملتهبة متوهجة ليس إلا وهماً وخدعة وأنه من المستحيل ان نخلع، في هذه الحياة، الاستمرار والدوام على اللحظات الغرامية العابرة التي أتاحت لنا فرصة الاستمتاع بالحب في أقصى درجات عنفه وحرارته وانفعاله.

الحُب العذري

أنتقلُ الآن إلى معالجة الظاهرة العاطفية الغريبة المسمّاة بالحب العذري محاولاً اكتشاف حقيقتها وتعليلها على ضوء الأفكار والتصوّرات الرئيسية التي برزت من خلال دراستنا لطبيعة الحب والعشق.

درج الكتّاب العرب، القدماء منهم والمحدثون، على تفسير ظاهرة الحب العذري بنسبته إلى قبيلة بني عذرة التي اشتهر عنها نمط معين من الحب، ثم بالاسترسال في وصف فضائله وضرب المثل به بسبب ارتباطه بالعفة والوفاء والسمو، على حدّ زعمهم. وعلى سبيل المثال نذكر أن الدكتور يوسف خليف سلك هذا السبيل في كتابه "الحب المثالي عند العرب" حيث يقول ما معناه إن الحب العذري ظاهرة روحية يتعلق العاشق بواسطته بمحبوبة واحدة يرى فيها مثله الأعلى الذي يحقق له متعة الروح، ورضا النفس واستقرارالعاطفة، وهو استقرار يجعل فتنته بواحدة تقف عندها آماله وتتحقق فيها كل أمانيه. كما يصف الدكتور خليف هذا النوع من الحب بأنه مأساة تدور أحداثها بين عاشقين تسيطر على حبهما العفة والإخلاص والتوحيد والحرمان والطهارة، وبأنه انتصار الروح على الجسد وهزيمة النفس الأمارة بالسوء أمام المثالية الخلقية التي يؤمن

بها العاشق العذري، وأمنيته القصوى هي الحصول على الرباط المقدس بينه وبين حبيبته."(٤٧)

لنترك الآن هذه الأفكار المسبقة المفخمة عن الحب العذري التي يردّدها الكتّاب الواحد بعد الآخر كما يردّدون الصلوات والتعويذات، وننظر إلى الظاهرة نفسها كما تتبين لنا من الوقائع والأشعار والروايات والقصص التي تناقلها الناس والرواة على مرّ العصور. وسأبدأ بإثبات بعض الحقائق الأساسية عن الحب العذري ثم أنظر فيما إذا كانت هذه الآراء الشائعة المعروفة حوله كافيةً لتفسيرها وتعليل الإشكالات التي تثيرها. وسأركّز انتباهي على قصة جميل وبثينة باعتبارها حكايةً نموذجيةً بالنسبة لقضية الحب العذري:

١) كانت بداية الحب بين جميل وبثينة شجاراً وقع بينهما في وادي بغيض كما يقول هو:

وأوّل ما قادَ المودّة بيننا
بوادي بغيضٍ يا بُثَيْنَ سِبَابُ

وأدى هذا السباب إلى وقوع كل منهما بهيام الآخر.

٢) مِن المعروف أن العادات القبلية وقيود الحياة الاجتماعية عند العرب كانت تحرم الغزل والتشبيب بالبنات حتى أنه إذا عرفت القبيلة أن شخصاً عرض لذكر فتاة من فتياتها في حديثه أو شعره حرّموا عليها الزواج منه ومنعوه من رؤيتها أبد الدهر. وهنا نتساءل لماذا لم يكتم

(٤٧) "الحب المثالي عند العرب" ، دار المعارف بمصر ، سلسلة اقرأ ، ١٩٦١ ، ص١٠ ، ١٩ ، ٤٨ ، ٥٢ .

جميل حبه لبثينة، إن كان في الحقيقة يحبها ويبغي الرباط المقدس بينه وبينها، ليقدم على خطبتها تمشياً مع الأعراف القبلية؟ عوضاً عن أن يفعل جميل ذلك راح يشبب بها ويتغزّل، حتى اشتهر بها واشتهرت به فمنعا من الزواج ولم يعد باستطاعتهما اللقاء إلا خلسةً. لا شك أن جميلاً فعل كل ما بوسعه لعرقلة الوصول إلى "الرباط المقدس" مع بثينة كما أن بثينة سلكت سلوكاً مشابهاً حين كانت تعتز بهيامه ونسيبه بين أترابها الأمر الذي جعل أي علاقة طبيعية، وفق العادات القبلية، بينهما مستحيلةً. فلا بد لنا إذن من تعليل معقول لتصرفهما على هذا النحو المخالف لما يقال لنا إنه هدفُ العاشقين الحقيقي. وتنطبق الاعتبارات نفسها على قصة ليلى والمجنون حيث شبب قيس بليلى واشتهر خبر هيامه بها وتداولت الألسنة قصة حبهما فلما خطبها زوّجها أولياء أمرها من فتى آخر.

٣) تزوجت بثينة غير جميل وقيل في وصف زوجها أنه كان دميماً أعور ولم تعش معه طول حياتها. كما أن حكاية عروة بن حزام وابنة عمه عفراء تروي قصة زواجها من غير حبيبها. وكما هو معروف استمرت علاقات العشاق على حالها حتى بعد الزواج. بعبارة أخرى، من خصائص الحب العذري الأولية أنه قائم على الزنى وعلى خرق فاضح لمؤسسة الزواج. ولنذكر هنا وصية يسوع المسيح: "وقد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تزن. وأما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى في قلبه"،(٤٨) ونقارنها بنظرة فيدرا إلى هيامها بابن زوجها هيبوليت التي تضمنت المعنى نفسه:

---

(٤٨) إنجيل متى ، ٥ : ٢٧ -٢٨ .

There is no blood stain, child upon your hands?

My hands are clean; the stain is on my heart.

يبدو إذن أن الحب العذري ضد مؤسسة الزواج وما تعنيه وهو يبقي على نفسه بالرغم عنها ويتحديها تحدياً مباشراً ومستمراً. ومع أن الحبر سال في الكلام عن عفة هذا الحب وطهارته ومثاليته، كان العاشق العذري يزور عشيقته المتزوجة في عقر دارها ويقضي الليالي مختبئاً عندها بالرغم من أنف زوجها وأهلها. ومن طرائف قصص هذا الحب أن الزوج كان يخرج دوماً وكأنه الشخصية الشريرة في القصة وتتم الأحداث دوماً على حساب شخصيته وكرامته. فهو دميم أو أعورأو فظ قاسي القلب يقف حائلاً بين لقاء العاشقين. وحين نقرأ قصص الحب العذري لا نشعر بالعطف على الزوج المخدوع الذي لا ذنب له في الحقيقة سوى التقيد بأعراف مجتمع البادية وعاداته، ولا نشعر بالتجاوب مع ذوي الفتاة الذين يمنعونها عن حبيبها تمسكاً منهم بأخلاقهم وقيمهم وشرائعهم لا حباً بالقسوة بذاتها أو رغبة بإنزال الشر ببناتهم. كما أننا، انسجاماً مع الرواية، لا ننظر إلى العاشقين نظرة الزانيين اللذين ارتكبا خطيئة شنيعة عقابها صارم جداً في الشرائع السائدة والمعمول بها، ولا يزعجنا أنهما لا يندمان قط على ما ارتكبا من معصية، كل ذلك باسم الحب الطاهر العفيف وفي سبيله! وفيما يلي أمثلة من روايات الحب العذري تبيّن ما أعنيه:

كان جميل في دار بثينة وفوجئ بمجيء ذويها:

" فأقسمتْ عليه أن يلقي نفسه تحت متاع البيت ، وأفهمته أنها إنما تسأله ذلك خوفاً على

نفسها من الفضيحة لا خوفاً عليه . ففعل كارهاً ، ونامت هي كما كانت وإلى جانبها أم الجسير (حيث كان جميل نائماً) ثم أقبل زوجها ومعه أبوها وأخوها يأخذ بأيديهما ولا يشك في أنه سيطلعهما على ريبة كما أنبأه غلامه . فلما كشفوا الثوب إذا أمّ الجسير حيث كانوا ينظرون جميلاً! فخجل الزوج ، وصاحت أختها ليلى : قبحكما الله! أفي كل يوم تفضحان فتاتكما ويلقاكما هذا الأعور - تعني زوج بثينة- بكل قبيح ؟"(٤٩)

لنسأل أنفسنا الآن من يستحق عطفنا في القصة: الزوج المخدوع الذي كان كريم النفس فخجل من فعلته أم العاشقان الماكران القليلا الحياء؟ ولم يكتف العاشقان بما فعلا بل وضعا الملح في الجرح وتشفيا - على لسان ليلى- بإهانة الزوج التعيس. وتتردد القصة نفسها في حكاية عروة وعفراء حيث:

"ينطلق عروة إلى الشام ، وينزل ضيفاً على زوج عفراء ، والزوج لا يعرفه بطبيعة الحال ، ثم ما يزال يحتال حتى يبعث إليها بخاتمه في إناء لبن مع جارية لها ، وتعرف عفراء أن ضيف زوجها هو حبيبها القديم . ويلتقي العاشقان بعد تلك الأيام الطويلة الحزينة التي باعدت بينهما ،

---

(٤٩) عباس محمود العقاد ، "جميل بثينة" ، دار المعارف بمصر ، سلسلة اقرأ ، ص١١٩ .

ويتذكران ماضيهما السعيد فوق أرض الوطن البعيدة وما فعلت بهما الأيام . . . (وبعد ذلك يصمم عروة العودة إلى وطنه حرصاً على سمعة عفراء وكرامتها ، واحتراماً لزوجها الذي أحسن وفادته وأكرم مثواه ."(٥٠)

بعد الذي فعله عروة تبدو غيرته على سمعة عفراء وعرض زوجها وكأنها من باب الإمعان بالاستهتار بالزوج والاستهزاء بمؤسسة الزواج بأسرها. وذكر الرواة -بإسناد- أن زيارات المجنون لحبيبته ليلى كانت كثيرة ومتعددة بعد زواجها وأنه كان يغار عليها من زوجها وخاصة حين كان يتجاسر على تقبيل زوجته. (٥١)

أين حقيقة العشاق العذريين من الأوهام التي ينسجها الكُتّاب والمعلّقون حول الطهارة والبراءة والعفة؟ ألم يشببّوا بصواحبهنّ ويشهروا بهنّ؟ ألم تستمتع العشيقات بدورهنّ، بهذا الهيام والتشبيب؟ لقد فطن ابن حزم بنظره الثاقب إلى هذه الحقيقة فكتب عنها القول الفصل:

"وقرأت في بعض أخبار الأعراب أن نساءهم لا يقنعن ولا يصدقن عشق عاشق لهن حتى يشتهر ويكشف حبه ويجاهر ويعلن وينوه بذكرهن ، ولا أدري ما معنى هذا ، على أنه يذكر عنهن العفاف ،

---

(٥٠) "الحب المثالي عند العرب" ، ص٢٢ .

(٥١) موسى سليمان ، "الحب العذري" ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٥٤ ، ص١١٢ -١١٣ .

وأي عــفــاف مع امــرأة أقــصى مناها وســرورها
الـشــــــهـــــــرة فـي هـذا المـعـنـى ."[52]

أما بالنسبة لما قالته الأوساط التقليدية حول الوفاء التام والإخلاص المتفاني الذي يتسمّ به الحب العذري ففيه الكثير من المبالغة كما أشار إلى ذلك العقاد نفسه في كتابه "جميل بثينة". كان جميل يرحل ثم يعود ليتّهم بثينة بصلة جديدة، وهي لا تبالي أن تلمح إلى هذه الصلة في مناجاتها إياه. وكانت هي أيضاً تتهمه بالاتصال بغيرها وهو لم يكتم الشك فيها وإلقاء الريبة عليها بدليل قوله:

بثــينةُ قــالتْ يا جــمــيلُ أربتَني
فــقلتُ كــلانا يا بُثَــيْنَ مــريبُ
وأرْيَبُنا من لا يؤدي أمــانــةً
ولا يحــفظُ الأســرارَ حين يغــيبُ

وقصة علاقة بثينة بحجبة الهلالي معروفة .[53]

٤) كان جميل فارساً شجاعاً وكان قومه على مكانة كبيرة من الثراء والقوة والوجاهة ولذلك كان يعلم علم اليقين أنه، مهما فعل، يظل دوماً في مأمن من أهل بثينة وزوجها بسبب قوة عشيرته وسلطانها. أما أهل بثينة فلم يجترئوا ، في الحقيقة، على حماية عرضهم من جميل إن رأوه في بيوتهم، وكان قصارى ما يفعله زوجها أن يشكوه ويشكوها إلى

---

(٥٢) "طوق الحمامة" ، ص٤٢

(٥٣) الحب العذري" ، ص١٠٩ .

أبيها وأخيها وقصارى ما يصنعه هذان أن يتعرضا لها فيشدُّ عليهما جميل بالسيف فيهربا أو يشكواه إلى أبيه. وصف جميل وضعه مع أهلها وزوجها فقال:

إذا ما رأوني طالعاً من بثينة
يقولونَ من هذا وقد عرفُوني
يقولون لي أهلاً وسهلاً ومرحباً
ولو ظفروا بي خالياً قتلوني

وحتى بعد أن أهدر السلطان دم جميل إن وجده أهل بثينة في دورهم، لم يجترئوا على قتله بعد أن وجدوه عندهم مرات عديدة وذلك بسبب نسبه وقوة عشيرته. فإذا كان هذا هو واقع الحال، ما الذي كان يحول بينه وبين بثينة؟ كان باستطاعته افتداؤها من زوجها الدميم الأعور والزواج منها لو شاء ذلك حقاً، فيجنب نفسه المخاطر والمتاعب ويكف عن تعريض سمعتها للسوء ويبعد عن نفسه وعنها تهمة الزنى، علماً بأن شريعة الفروسية في البادية كانت تعترف بحق الأقوى وتحترمه.

ترى هل كان بينهما عائق حقيقي يمنع تحقيق الرباط المقدس بينهما؟ كيف نفسر هذا الإشكال في تصرف العاشق العذري إن نحن قبلنا بآراء الدكتور خليف ومن يذهبون مذهبه في الكلام عن هذا النوع من العشق؟ وإذا كان باستطاعة جميل خرق جميع الأعراف والشرائع السارية في البادية -من تشبيبه ببثينة حتى زياراته الطويلة لها بعد زواجها- بدون أن يصيبه أي سوء هل كان عاجزاً حقاً عن ابتكار طريقة تمكنه من حمل

بثينة والذهاب بها والزواج منها ؟ أم أن الحقيقة هي أنه لا جميل ولا بثينة كانا يرغبان بالرباط المقدس بالرغم عما يقوله الدكتور خليف ومن يرون رأيه؟

لا بد أن القارئ لاحظ بعض الشبه بين شخصية جميل (كما صورناها) وبين الدونجوان. ومن علامات هذا الشبه أن زوجها وأهلها والأعراف القبلية وعادات البادية تمثل، في هذه الحالة، شريعة الامتداد بمؤسساتها المحافظة التي تعمل على الاستقرار في المجتمع بإخضاع الحب والزواج لاعتبارات أخلاقية وقبلية وتقليدية بعيدة جداً عن سنة العشق والتجربة الغرامية الشديدة. وبمقابل هذا الوضع نجد العاشقين غارقين في صدام مستمر مع المؤسسات القائمة كافة، ثائرين عليها، رافضين أخلاقها وقيمها، شأنهما في ذلك شأن الدونجوان أو الدونجوانة. إنهما لا يريدان الحب الذي ينزع نحو الدوام والاستمرار ضمن مؤسسة الزواج لأن ذلك لا يتحقق إلا على حساب اشتداد الحب وتوهجه؛ وكلاهما يبحث، في الحقيقة، عن حدة الانفعال في العشق ويريد العمل دوماً على تصعيد عنف عشقه وقوته إلى أعلى درجات التوتر الممكنة.

ولكن العاشق العذري لا يحافظ على عنف عشقه بالتنقل الدائم من حبيبة إلى أخرى كما يفعل الدونجوان الكلاسيكي، وإنما يركز أحاسيسه على محبوبة واحدة فريدة ويؤمل النفس دوماً بالحصول عليها ولكنه يصطنع في الوقت ذاته جميع العراقيل الممكنة ليحول بينه وبين امتلاكها لأنه يعلم علم الدونجوان "بأن العاشق متى ظفر بالمعشوق مرة واحدة نقص تسعة أعشار عشقه..."[٥٤] بعبارة أخرى، يتوق العاشق العذري دوماً

---

(٥٤) "في القيان"، ص٧٤ .

لحبيبته (وهي تتوق إليه بطبيعة الحال) ولكنه يمنع نفسه، عن وعي وعن غير وعي، بشتى الوسائل من امتلاكها (وهي من امتلاكه) حتى لا تخفّ حدّة هذا التوق وتبرد عاطفته. ويجد العاشقان نفسيهما بوضع غريب هو أنه كلما مرت الأيام ازداد العشق عنفاً وتأججت ناره واشتد انفعاله حتى يؤدي بالعاشق، في أقصى الحالات، إلى الجنون والهيام على وجهه في الصحراء، فتكون نار العشق قد وصلت إلى أوجها فأذابت عقله ورشده وحرقت جسده مما هو معروف من كلام هؤلاء العشاق عن سهدهم وهزالهم وسقامهم وحرمانهم. أي يحقق العاشق العذري ما يحققه الدونجوان ليس بالتنقل والتجوال بل بإبقاء نفسه في حالة بين بين: في حالة الرغبة الشديدة والشهوة المتصاعدة باستمرار لأنها تتوق إلى الحبيب ولا تناله أبداً. يقول جميل:

عَلُقتُ الهوى منها وليداً فلم يزلْ
إلى اليوم ينمي حبها ويزيدُ

وبطبيعة الحال، تولد هذه الحالة ألماً ما بعده ألم وشقاء ما بعده شقاء، ولكن العاشق يتمسك بألمه وشقائه لكونهما من جوهر عشقه وتجربته الوجدانية، وكلما أمعن العاشقان في التراوح بين البعد وشبه القبول، بين اللقاء المبتور والفراق الطويل، نما هذا العشق وازداد.

وبما أن العاشق العذري يحقق تجربته العاطفية المتقدة عن طريق الحواجز والعوائق التي تحول دون وصوله إلى معشوقته وشفاء غليله منها نراه دوماً يبحث، بصورة لا شعورية، عن هذه العوائق لتكون ذريعةً له ولها لكي يفترقا مرة أخرى بعد لقائهما فيتجدد الحب وتستعر ناره من

جديد. والعوائق هنا نوعان: خارجية وداخلية. حين يواجه جميل عائقاً خارجياً يستبسل في جهوده لتخطيه وإزاحته من طريقه. ولكن في الساعة التي يبدو له فيها أن جميع العوائق والحواجز قد أزيلت من طريقه، فنتوقع من الحبيب أن يشفي غليل حبيبه، تتوقف الأحداث فجأةً ويمتنع الحبيبان عن امتلاك بعضهما بعضاً متذرعين بألف حيلة وذريعة فيضطرا للافتراق من جديد. وتستمر القصة على هذا النحو إلى أن يقضي أحدهما نحبه ثم يلحق به الآخر.

وعلى ضوء هذا التحليل تبدو بداية المودة بين جميل وبثينة في وادي بغيض طبيعية لأنه لولا السباب الذي جرى بينهما لاضطرا لأن يتصرفا كأي عاشقين عاديين وقعا في الحب من أول نظرة. كما أنه لو كتم جميل حبه لبثينة ولم يشبّب بها كان سيضطر لخطبتها من أهلها وفقاً لسنة البادية المتبعة فيتزوجها وينجبان الأطفال ويعيشان حياة رتيبة لا عشق فيها ولا انفعال. لذلك يعمل العشاق العذريون جهدهم للحؤول دون وصولهم إلى هذه النتيجة، فكان تشبيب جميل ببثينة وكان اعتزازها بهيامه وغزله فضمن كل منهما بذلك ابتعاد شبح العلاقات الدائمة والصلات الرتيبة التي ينطوي عليها الرباط المقدس، كما ضمنا أيضاً اشتداد العشق والهيام مع مرّ الأيام. وكي يصبح الحائل بينهما شبه ثابت ومؤكداً تزوجت بثينة من الأعور الدميم الذي لا يعدّ في الواقع زوجاً حقيقياً بل يبدو، في الروايات، وكأنه صورة غير محببة للنفوس، وظيفتها جعل بثينة في وضع امرأة لا هي مرتبطة حقاً برباط الزوجية ولا هي طليقة حرة لتتمكن من الاتصال بجميل بالحلال. إنها في منزلة بين المنزلتين، أي في حالة التوق المستمر المتزايد لجميل من ناحية، وفي حالة

لا تسمح لها بالاتصال به حقاً بسبب شبه الزوج الذي يعدّها في عصمته من الناحية الثانية.

الحقيقة هي أن لا جميل كان يريد الزواج ببثينة ولا بثينة كانت تريد الزواج من جميل بل كان كل منهما يريد قبل كل شيء عشقه للآخر وشعوره بالانفعال المتزايد بسبب بعد حبيبه. لا عجب إذن إن رأينا جميل وبثينة يسلكان سلوكاً يؤدي حتماً إلى التفرقة بينهما منذ البداية، فتغزل بها واعتزت هي بغزله. ومما يؤكد فكرتنا هذه عن العشاق العذريين موقف جميل وبثينة من العوائق القائمة بينهما المتمثلة في تقاليد البادية وعاداتها. كان العاشقان يتحديان التقاليد والعادات تحدياً صارخاً ولا يبديان أي اهتمام جدي لا بالزوج ولا بأهلها هي، ولا بأهله الذين كثيراً ما نصحوه بالإقلاع عن حبٍّ بثينة. ولكن خرق العاشقين للعادات والتقاليد كان يقف عند حد معين: وهو الحد الذي لو تعدوه لاضطر جميل لأن يحمل بثينة ويذهب بها بالرغم عن أنف الجميع. هنا يبدو وكأن موقفهما من التقاليد والشرائع قد تغير تغيراً جذرياً وأن ثورتهما قد ضعفت فلا هو يقدم على هذه الخطوة النهائية ولا هي تحثه عليها فيضطران للافتراق مرة أخرى. وهذا يعني أنه كان يرغب في عشقه لبثينة أكثر مما كان يرغب في بثينة نفسها. أضف إلى ذلك أن وضعه هذا كان يسبغ على لقاءاته مع بثينة جواً من المغامرة والمخاطرة يزيد من حدة عشقه وتألمه عند الفراق. وتبين الرواية التالية موقف العاشقين (وخاصة موقف جميل) من العوائق الخارجية التي تتدخل لتفصل بينهما:

"سار جميل إلى بثينة وحدثها طويلاً وأخبرها خبره بعدها . وقد كان أهلها رصدوها فلما فقدوها

تبعها أبوها وأخوها حتى هجما عليهما ، فوثب جميل فانتضى سيفه وشدَّ عليهما فاتقياه بالهرب ، وناشدته بثينة الله إلا انصرف ، وقالت له : إن أقمت فضحتني ، ولعل الحي أن يلحقوك . فأبى وقال : أنا مقيم وامضي أنت وليصنعوا ما أحبوا . فلم تزل تناشده حتى انصرف ."(55)

يبدو سلوك جميل وكأنه إقدام كبير من قبله ليطرد الدخلاء الذين جاؤوا ليعكروا صفوا جلسته الغرامية مع معشوقته. ولكن ماذا يحدث حين يكون جميل مع بثينة ولا يأتي عليهما أحد ليعكر صفو مزاجهما ويحاول التفرقة بينهما ؟ يستل جميل السيف ذاته الذي طرد به الدخلاء ليجعل منه مانعاً بينه وبين بثينة. أي حين تنعدم العوائق الخارجية بين العاشقين ولا يعود من مسوّغ لهما في عدم الوصال تتدخل العوامل النفسية الداخلية التي يخترعانها فيضطران للافتراق من جديد لأنهما يعلمان في أعماقهما أن الوصال يعني نهاية عشقهما. وتبين الرواية التالية هذه الحقيقة: كان جميل في ليلة عند بثينة يناجيها ويشكو إليها حبه فقال لها:

"يا بثينة ، أرأيت ودّي إياك وشغفي بك أما تجزينه ؟ قالت : بماذا ؟ قال : بما يكون بين المحبين . فأجابته مغضبة : يا جميل . أهذا تبغي ؟ والله لقد كنت عندي بعيداً منه ، ولئن عاودت تعريضاً بريبة لا رأيت وجهي أبداً . فضحك وقال

(55) "جميل بثينة" ، ص١٠٢ .

والله ما قلت لك هذا إلا لأعلم ما عندك فيه ؛ ولو علمت أنك تجيبينني إليه لعلمت أنك تحبين غيري ، ولو رأيت منك مساعدة عليه لضربتك بسيفي هذا ."(٥٦)

ونلاحظ هنا أن رفض بثينة كان على الأرجح من باب الغنج والدلال والتمنّع المصطنع لأن شعر جميل يبين أنها كانت، كغيرها من البدويات، مطبوعة على التأبي والدلال الذي يشوبه الجفاء وأنها كانت تحسن مزج المنع بالإغراء والإطماع بالإقصاء، كما يقول هو فيها:

ولستُ على بذل الصفاء هويتُها
ولكنْ سَبَتْني بالدلال وبالبُخْلِ

وبالرغم عن ذلك تصرف جميل تصرف العاشق العذري فاصطنع مانعاً بينه وبينها. ويقال الشيء نفسه عن صاحب عفراء الذي زارها في عقر دار زوجها المغفَّل، وتحايل عليه وخدعه في عرضه مع أن الزوج أحسن وفادته وأكرمه. وحالما وقف عروة وجهاً لوجه أمام الحبيبة قرر فراقها من جديد بحجة الغيرة على سمعتها وحفاظاً على كرامتها وكرامة زوجها! وواضح أن اهتمام عروة بسمعة حبيبته وكرامة زوجها المخدوع ليست ناتجةً عن مثالية أخلاقية، ولو كانت لما فعل عروة ما فعله أصلاً، وإنما عن رغبة في التذرّع بشيء يحول بينه وبين حبيبته ويفرق بينهما من جديد ليشتد العشق وتستعر نار الهيام في قلبيهما.

يذهب العاشقان إلى أبعد من ذلك في خلق العوائق بينهما. جاء جميل بثينة ذات مساء معرِّضاً نفسه للقتل والخطر، ثم اضطجع إلى

---

(٥٦) "جميل بثينة" ، ص١١٧ .

جانبها. وماذا حدث بعد ذلك؟ غلب النوم على العاشقين فطلع الصباح واضطر جميل للرحيل. تقول الرواية:

"وبقيت مع بثينة أم الجسير أختها وأم منظور. فقامت إلى جميل فأدخلته الخباء معها وتحدثا طويلاً ثم اضطجع واضطجعت إلى جنبه فذهب النوم بهما حتى أصبحا"(٥٧)

وينشد جميل وهو يبتعد عن الحبيبة بعد طلوع الصباح:

وكان التفرّقُ عند الصباح
عن مثل رائحة العنبر
خليلان لم يقربا ريبةً
ولم يستحقا إلى مُنْكَرِ(٥٨)

وتفيد الرواية التالية المعنى نفسه:

"فواعد بثينة والتقيا ذات ليلة فتحدثا، ثم عرض عليها جميل أن تضطجع فمانعت ثم قبلت وأخذها النوم، فلما استوثق جميل من ذلك نهض إلى راحلته فمضى وأصبح الناس فرأوا بثينة نائمة في غير بيتها فلم يشكُّوا في أنها كانت مع جميل. وقال جميل في ذلك شعراً."(٥٩)

---

(٥٧) "جميل بثينة"، ص١١٨.

(٥٨) "الحب العذري"، ص١٠٤.

(٥٩) "جميل بثينة"، ص٤٧.

والجدير ذكره هنا أن العشاق العذريِّين يتذرعون بالعفة والطهر والحياء ليحققوا غايتهم في استمرار الانفصال علماً بأن سلوكهم في ساعات البعد والفراق لا يقيم وزناً لا للحياء ولا للعفة ولا لأي من هذه القيم المثالية التي يدّعون التمسك بها حين يرون فائدة منها في رفع حرارة وجدهم. يتذرع قيس بن ذريح بالحياء فيقول:

تَـتُـــوقُ إليـك النفسُ ثم أردُّها
حـيـاءً ، ومـثلي بالحـيـاء حَـقِـيقُ

لا شك أن من يمحِّص قصص هؤلاء العشاق يدهش لقدرتهم على اختراع الحيل والسبل للحفاظ على حرارة عشقهم. وحين يبدو أنهم استنفدوا جميع السبل الممكنة لتحقيق غايتهم في الفراق، بما في ذلك النوم، تتدخل المشيئة الالهية بذاتها لتحول بينهما كما حدث في قصة يوسف وامرأة العزيز في مصر وهي قصة يفترض فيها الإشادة بتعفف يوسف وطهره. كانت امرأة العزيز، حسب رواية الطبري في تفسيره المشهور، "حسناء ناعمة طامعة في ملك ودنيا" فعشقت ربيبها يوسف الذي اشتهر بحسنه وجماله الأخّاذ:

"وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلَّقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون ."

تمنَّع يوسف في بادئ الأمر حين دعته امرأة العزيز إلى نفسها ولكن يبدو أنها نجحت في إشعال نار الحب في قلبه إذ تستمر الرواية على النحو التالي:

"ولقـــد همَّتْ به وهمَّ بهـــا لولا أن رأى برهان
ربِّه كـذلك لنصـرف عنه السـوء والفـحـشـاء
إنـه من عـــبــــادنـا المخلـصين ."[٦٠]

أي حين سقطت جميع الحواجز بين الحبيبين اللذيْن همَّا ببعضهما حدثت المعـجزة ونُودي يوسف، حسب تفسير الطبري، "بالنهي عن مواقعة الخطيئة"[٦١] فقام وامتنع عن الزنى. وواضح أن يوسف لم يمتنع عن امرأة العزيز تعففاً أو نزولاً عند مثالية أخلاقية معينة بل بسبب تدخل المشيئة الآلهية تدخلاً مباشراً لتحول بينهما مما أدى إلى اشتداد هيام امرأة العزيز بيوسف واستعار نار حبه في قلبها كما تبين بقية القصة القرآنية المشهورة.

أما العائق المطلق الذي يحنّ إليه العشاق العذريُّون فهو بلا شك الموت، وأفضل أنواعه في عرفهم هو أن يقضيا نحبهما معاً كما هو معروف عن هذه القصص. لذلك يتغنى العاشق العذري بصاحبته ويعيش على عشقها ويقضي نحبه على هواها. ومن الأمثلة عن ارتباط الحب العذري بالموت قول ليلى الأخيلية:

وذي حـــاجـــةٍ قلنا له لا تَبُحْ بهـــا
فليس إليـهـا مـا حـيـيتَ سـبـيلُ

والرواية التالية عن جميل وبثينة تتضمن ذات المعنى:

"وقـيل لبـثـينة : هذا جـمـيل لما به فـهل عندك
من حيلة تنفسين بها وجده ؟ فقالت ما عندي

(٦٠) سورة يوسف٢٤ .
(٦١) "تفسير الطبري" ، المطبعة الميمنية بمصر،ج٤ ، الجزء الثاني عشر ، ص٩٨ -١٠٣ .

أكـثـر من النظر إلى أن ألقـاه في الدار الأخـرى أو زيـارتـه وهـو مـيـت تحت الثـرى ."(٦٢)

ومن مميزات الحب العذري اعتقاد العشاق أنهم مسيّرون في أفعالهم وتصرفاتهم بقوة خارقة لا حول لهم ولا قوة في ردّها أو السيطرة عليها. يصوّرون قَوَةَ العشق الجارفة على أنها قدر محتوم أو طاقة سحرية تنفذ فيهم وتسلبهم إرادتهم فلا يستطيعون الإتيان بشيء في سبيل ردعها. أي يعدّون أنفسهم مسحورين مفتونين فيرتفع عنهم اللوم في جميع أعمالهم وترتفع عنهم المسؤولية في كل ما يفعلون باعتبار أنهم مجبرون لا مخيرون، خاضعون لسلطان العشق الذي لا يردّ، وسحر المحبوب الذي لا يفكّ، فهم معذورون في تحديهم للأعراف والقيم والمؤسسات التي يعيش الناس بموجبها ويلتزمون بها. وتظهر هذه الميزة التي يتصف بها العشاق العذريون في قصة يوسف بكل وضوح:

"وقـال نسـوة في المدينة امـرأة العـزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إنّا لنراها في ضلال مبين . فلمّا سمعت بمكرهن أرسلت إليهن واعتدَت لهنّ متكأ وآتت كلّ واحدة منهنّ سكينا وقالت أخرج عليهنّ فلما رأينه أكبرنه وقطّعن أيديهنّ وقلن حاشى لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم . قالت فذلكن الذي لمتنّني فيه ولقد راودته عن نفسه . . ."(٦٣)

---

(٦٢) "الحب العذري" ، ص١١٢ .

(٦٣) سورة يوسف٣٠-٣٢ .

بعبارة أخرى، حين قطعت النسوة أيديهن عند مشاهدتهن يوسف ارتفع اللوم وارتفعت المسؤولية عن امرأة العزيز لأنها كانت واقعة تحت تأثير قوة سحره وفتنته وهي قوة لا تردّ ولا خيار لمن تؤثر به في التخلص من سلطانها بدليل ما حدث للنسوة في الرواية. فإذا لم يمتنع النبي يوسف عن الهمّ بامرأة العزيز إلاّ بعد أن شملته الرعاية الالهية بعنايتها المباشرة كيف نلومها حين همّتْ به وهي العاشقة المولّهة المخلوقة من لحم ودم؟ أن نطلب منها التعفف وهي مسلوبة الإرادة أمام قوة سحرية خارقة يعني تحميلها ما لا يطاق ومحاسبتها في أمور لم يكن لها حول ولا قوة في ردّها. وبما أن اللوم عدّ مرفوعاً عن امرأة العزيز، كما ارتفع عن يوسف من قبلها، وصفت الآية قول النسوة "بالمكر" مع أنه كان قولاً صادقاً. وقد اعترف يوسف بذنبه ولم ينكر ميله نحو امرأة العزيز بدليل قوله: "وما أبرئ نفسي إن النفس لأمّارةٌ بالسوء إلاّ ما رحم ربي إنَّ ربي غفورٌ رحيم."[٦٤] ونجد الفكرة ذاتها في شعر المجنون حيث يقول:

هي السحرُ إلاّ أنّ للسِحْرِ رُقْيةً
وإنّي لا ألقى لها الدهرَ راقيا

وحين كان ذوو جميل يوبخونه ويطلبون منه السلو عن بثينة والإقلاع عن هواها كان جوابه دوماً أنه لا يستطيع إلى ذلك سبيلاً لأنه مسيّر وليس مخيراً في عشقه لها. قال في تبرير استهتاره ورفع المسؤولية واللوم عن نفسه ما يلي:

"ولكن هل رأيتَ قبلي أحداً قدر أن يدفع قلبه هواه ؟ أو ملك أن يسلي نفسه ؟ أو استطاع أن

(٦٤) سورة يوسف٥٣.

يدفع ما قضي عليه ؟ والله لو قدرت أن أمحو ذكرها من قلبي أو أزيل شخصها من عيني لفعلت ، ولكن لا سبيل إلى ذلك . وإنما هو بلاء بليتُ به لحين قد أتيح لي ، وأنا أمتنع من طروق هذا الحي والإلمام بهم ولو متُّ كمداً ، وهذا جهدي ومبلغ ما أقدر عليه ."(٦٥)

وقال أحد الشعراء معبراً عن الفكرة ذاتها:

يلومونني في حُبٍّ سلمى كأنَّما
يرون الهوى شيناً تيممتُهُ عَمْدَا

ألا إنما الحبُّ الذي صدَّع الحشا
قضاءٌ من الرحمن يبلو به العبدا

وعلى ضوء هذه الحقائق نستنتج ما يلي عن ظاهرة الحب العذري:

١) العشق العذري محاولة لمواجهة مفارقة الحب الكبرى والتغلب عليها باختيار نزعة الاشتداد في الحب ورعايتها وتحقيق رغباتها عن طريق رفض العلاقات العاطفية الدائمة المستقرة بين العاشقين خوفاً من أن يؤدي "الرباط المقدسِ" أو ما يشبهه إلى اضمحلال العشق وخفوته. ما دام العاشق طالباً باحثاً فعشقه قائم وما دام يتأرجح بين اللقاء والفراق على النحو الذي بيناه تصاعد حبه في اشتداده وحدة انفعاله.

٢) إن العاشق العذري (أو العاشقة العذرية) لا يحبُ، في الحقيقة، شخص حبيبته بقدر ما يحب عشقه هو لها، ولذلك نراه يفضّل بعدها

---

(٦٥) جميل بثينة" ، ص٣٧ .

على قربها لأن البعد يؤجج نار العشق ويترك المجال للعاشق لأن يتلذذ، بينه وبين نفسه، بأعنف المشاعر وأعذب الأحاسيس ولأن يستمتع بحالات الألم والتمزق والقلق والسقم والبلاء التي تطرأ عليه وتنزل به من جراء بعده وحرمانه. أما في ساعات اللقاء فإن عشقه يضعف ويخبو.. ولذلك، لا يطلب العاشق اللقاء إلاّ كمقدمة ضرورية لتحقيق الفراق من جديد. وكان جميل صريحاً بهذا المعنى حين اعترف أن لقاء بثينة يميت هواه بينما فراقها يجدده ويحييه:

يموتُ الهوى مني إذا ما لقيتُها
ويحيا إذا فارقتُها فيعودُ
لئنْ كان في حُبِّ الحبيبِ حبيبهُ
حدودٌ لقد حلَّتْ عليَّ حدودُ

كما عبر عن ذات المعنى عبد الله بن علقمة مخاطباً صاحبته حبيشة:

ولم يكُ حبِّي عن نوالٍ بذلتهِ
فيسليني عنه التجهُّمَ والهجرُ

أي أن العاشقين العذريين يريدان، في الواقع، البعد أكثر مما يريدان الوصال ويرغبان بالفراق أكثر مما يرغبان في العناق، وبما أن حبهما ليس موجهاً إلى شخص المحبوب وذاته أصلاً، بل إلى واقعة الحب نفسها وإلى الشعور العنيف بأنهم يعشقون بعنف، لا يمكن لحبهم أن يتأثر بأفعال المحبوب أو بسلوكه أو بالتبدلات التي قد تطرأ عليه مع مرِّ الأيام. لقد انعزل الحب عن المحبوب ولم يعد يتأثر به لأن موضوعه ليس إنساناً حياً يتغير ويتبدل في مجرى الزمان وإنما هو صورة مجردة ثابتة في مخيلة

العاشق يسبغ عليها أروع الصفات وأجمل الخصال التي لا تحول ولا تزول على مدى الدهر. وتمثل الرواية التالية مدى اهتمام المجنون بهيامه بليلى بمقابل اهتمامه بشخص ليلى الحقيقي:

"ومما يذكر عن قيس أنه بعد أن منع ليلى ، وبرح به حبها حتى أصاره رجلاً تالفاً مشرد العقل مشوش الذهن . . . كان لا ينفك عن ذكرها ، وترديد شعره فيها ، وندائها في الليل والنهار . فلما جاءته ليلى تطرق باب خيمته لم يجب ولم يلتفت إلى الطارق لأنه كان مشغولاً عنه بالتفكير في ليلى"(٦٦) .

لا غرابة إذن ألاَّ يتأثر حب جميل بالشكوك التي كانت تساوره حول إخلاص بثينة له أو بعلاقاتها الغرامية بحجبة الهلالي، بل يبدو لي أنه من شأن هذه الشكوك والعلاقات الغرامية الإضافية أن تمثِّل دور العوائق فتزيد من تأجج نار العشق وتزكيها، لذلك كانت الإشارات إلى انعدام الوفاء بينهما تأتي على سبيل الغزل والغنج والتمنع وليس على سبيل التوبيخ والزجر والتهديد. ولا غرابة أيضاً في أن يكون حب علقمة لصاحبته أبعد من أن يتأثر بأفعالها وسلوكها في التجهم والهجر لأنه لا يعشقها بقدر ما يعشق عشقه لها ولأن محور حبه الحقيقي هو ذاته المنفعلة المتيمة وليس شخص الحبيبة. وعليه يتبين كيف كان الخليفة عمر مجانباً للصواب حين قال، على ذمة رواية الأصمعي، "لو أدركتُ عفراء وعروة لجمعتُ بينهما."(٦٧) لو قضي لعمر أن يحقق رغبته يكون قد

---

(٦٦) إبراهيم المصري ، "تاريخ الحب ورسائله الخالدة" ، كتاب الهلال ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص٩٧ .

(٦٧) "الحب العذري" ، ص٢١ .

فرض على العاشقين وضعاً لا يريدانه أبداً وعملا كل ما بوسعهما على تجنبها. ولا ريب أن العاشقين ما كانا لينصاعا لمشيئة الخليفة لأن تنفيذها كان سيؤدي إلى تفريغ تجربتهما من كل معانيها ومغازيها ومحتوياتها العاطفية وتحويلهما إلى زوجين عاديين لن يذكرهما التاريخ بشيء. إن مجرد التفكير ببثينة على أنها "حرم جميل المصون" يكفي لإفساد كل مشاعرنا وخيالاتنا وتجاربنا المرتبطة بقصة هذين العاشقين. وهل باستطاعتنا مثلاً أن نتصور "الكوميديا الآلهية" بعد التفكير ببياتريس على أنها "مدام دانتي" التي تعدُّ له ثلاث وجبات يومياً وتغسل الملاعق والصحون ثم تجري وراء أولادها من الصباح إلى المساء؟

كذلك جانب الدكتور طه حسين الصواب حين شكَّك بصحة بعض الروايات عن جميل بحجة أن سلوكه، كما ترويه الرواية، يعرِّض حبيبته للفضيحة، وأن رجلاً كجميل كان يحب بثينة حباً كالذي نجده في شعره لا يفعل ذلك، ولا يمكن أن يصدر مثل هذا الفعل عن حبيب عذري كما نفهمه وكما يفهمه القدماء[٦٨]. ولكن الواقع هو أن جميلاً لم يتورع عن فضح بثينة منذ أن شتمها في وادي بغيض وأخذ يشبِّب بها لأن حبه لم يكن في حقيقته موجهاً لشخص بثينة حتى يحرص عليها هذا الحرص الذي يتوقعه طه حسين من العاشق العذري، بل كان موجهاً إلى ذاته وأحاسيسه وانفعالاته وخياله. ولم تكن بثينة إلاَّ الأداة والوسيلة التي كان يحقق جميل بوساطتها تجربته العاطفية الذاتية الحادة. فلا عجب إذن إن هو سلك نحوها سلوكاً لا يرضى عنه مَنْ رسموا لأنفسهم صورةً أخلاقيةً مثاليةً خاطئةً عن حقيقة العشق العذري وطبائع من يقعون فيه.

(٦٨) "جميل بثينة"، ص٤٧ -٤٨.

٣) يعبّر الحب العذري عن حالة مرضية متغلغلة في نفس العاشق وتتبين في ولعه بسقمه وهزاله وحرمانه وتلذذه بألمه وشقائه وتعاسته، واستمتاعه بحرقة الشوق الذي لا أمل في إشباعه. ولا تخلو ظاهرة الحب العذري من خصائص "السادوماسوكية" من حيث أنه يميل ميلاً شديداً إلى تعذيب النفس والغير (أي الحبيب) بدون مبرر واضح أو غاية محددة وإنما لمجرد الاستمتاع والتلذذ بالألم والعذاب باعتبارهما جزءاً لا يتجزأ من عنف التجربة الغرامية العذريّة وشدة انفعالاتها. وقد أشار أحد الكتّاب العرب القدماء إلى هذه الظاهرة السادوماسوكية الملازمة للحبّ العذري فقال في وصف هؤلاء العشاق:

"فهم يستلّذون مرارة العشق مثل الضرب . . .
فمنهم من يموت من أوار غرامه ، ومنهم
من يموت بهيام سقامه ."(٦٩)

وقال ابن حزم بهذا الصدد:

"والحب أعزّكَ الله داء عياء . . . ومقام مستلذّ ،
وعلّة مشتهاة ، لا يود سليمها البرء ،
ولا يتمنى عليلها الإفاقة

(ثم أنشد):

وأستلذّ بلائي فيك يا أملي
ولست عنك مدى الأيام أنصرف(٧٠)

---

(٦٩) "الحب العذري" ، ص٤٣ .
(٧٠) "طوق الحمامة" ، ص١١ .

لا غرابة إذن أن يتصور العاشق أن قلبه هو أشقى القلوب كما أنشد أحد الشعراء:

سألتُها عن فؤادي أين مسكنُهُ
فإنَّه ضَلّ عنِّي عند مسراها
قالتْ : لديَّ قلوبُ جمَّةُ جُمِعَتْ
فأيُّها أنتَ تبغي ؟ قلتُ أشقاها

يتبين لنا كذلك أن العقاد كان على خطأ كبير حين حاول تفسير شكوى العشاق من العشق بقوله:

"لا يشكون العشق لأنهم يطلبون الفكاك منه ، وإنما يشكونه لأنهم يطلبون الفكاك من ألمه إن استطاعوه ، وإلا فالبقاء فيه مع ألمه حين لايستطيعون"[٧١] .

حاولت أن أبين أن العشاق العذريين لا يطلبون الفكاك من ألم العشق على الإطلاق، وإنما يعشقون الألم نفسه ويبغونه لذاته كجزء جوهري من تجربتهم. وتتضح هذه الحقيقة في الأدب الغربي الرومانسي وليس في التراث العربي فحسب، كما في قول الشاعر الألماني نوفاليس وهو جالس على قبر خطيبته:

"بدا لي إذ كنت جالساً على القبر أن موتي يمدّ الانسانية بمثال الوفاء الأزلي ويثبت أنه بإمكان الإنسان أن يحبّ كما أحببت . . . واجتناب الألم دلالة على أن الإنسان لا يريد أن يحب إذ على العاشق أن

(٧١) "جميل بثينة" ، ص ٣٩ .

يظل دوماً وأبداً مستشعراً للفراغ الذي يحيط به وأن يبقي جراحه نازفة . اللهم أنعم عليّ بالقدرة على الاحتفاظ بهذا الألم الغالي علي أشد الغلاء ."(٧٢)

كما كتب أحد الأدباء (Chrestien de Troyes) من أصحاب هذه النزعة السطور التالية:

"تختلف علّتي عن غيرها من سائر العلل . إنها تسرّني وأنا أبتهج بها . إنها مرادي كما أن شقائي هو عافيتي . لذلك لا أدري مما أشكو إذ أن دائي أصابني وفقاً لإرادتي ، وما أردته قد أصبح دائي . إلاّ أني في غاية البهجة لأنني أردت على النحو الذي أردت حتى أني أتألم بسرور ، وأشعر بغبطة عظيمة بسبب ألمي ، حتى أني سقمت من شدة غبطتي ."(٧٣)

كما تتجلى الحالة المرضية التي يستعذبها العاشق العذري ويعاني منها في توقه للموت وحنينه إليه، كما مرّ معنا، باعتباره الحائل المطلق بينه وبين المعشوقة. ويبرر هؤلاء العشاق تمسكهم بعشقهم وألمهم وشقائهم في وجه دعوات التعقّل والاتزان والأخلاق الحميدة والإقلاع عن هوسهم باللجوء إلى ذرائع أهمها القدر والمصير والسحر، كما بينّا سابقاً. أضف إلى ذلك أن نفسية العاشق العذري المريضة مستعدة للتضحية والعطاء ليس حباً في المتعة التي يستشعرها الإنسان نتيجة

---

(٧٢) Love in the Western World ، ص٢٢٥

(٧٣) المصدر السابق ، ص٢٧ .

فعل العطاء في سبيل المحبوب، بل رغبة بالألم والشقاء اللذين يرافقان، في كثير من الأحيان، أعمال التضحية والعطاء. إنهم لا يضحون في سبيل الخير الماثل في التضحية أو الحاصل عنها، بل في سبيل الألم الذي يرافقها. كما أن تحول الحب العذري عن المحبوب بوصفه موضوع الحب الطبيعي إلى صورة خيالية تدغدغ مشاعر العاشق وتوتّرها، وازدهاره على الوهم والخيال والغاية المؤجلة دوماً وأبداً إلى المستقبل، هي كلها من أعراض النفوس التي تعاني من حالات مرضية معينة.

٤) خلافاً للآراء الشائعة، يبدو لي أن الحب العذري شهواني في أصله ونرجسي في موضوعه ومنحاه. إنه نرجسي لأن اهتمام العاشق وهيامه ينصبان في الواقع على ذاته ومشاعره وأحاسيسه وخياله لا على شخص حبيبته كما أوضحنا سابقاً. أي أن هذا العاشق النرجسي عاجز عن التخلص من خيالاته وأفكاره وعواطفه الشخصية كموضوع لعشقه. فينزع نحو المبالغة في تصوير قيمة موضوع حبه ويجعل منه مثلاً أعلى لا وجود له ولا واقع خارج ذاته. وهو شهواني إلى أقصى الحدود لأنه قائم على منع الرغبة في امتلاك المحبوب منعاً مستمراً، والتفنن في تقريب ساعة الاكتفاء والاشباع تارةً وإبعادها تارةً أخرى وذلك بشتى الوسائل الممكنة حتى تضطرم نار العشق فتذيب عقله وتتلف جسده. إن العاشق العذري أبعد ما يكون عن التغلب على شهوته والسيطرة عليها، بل على العكس من ذلك، إنه يرعى هذه الشهوة ويعتني بها ويؤججها ويعمل على اشتداد حدتها باستمرار فيشوقها بالبعد تارة وبتقريب الثمرة المشتهاة منها تارة أخرى. وحين تصبح الثمرة في متناول يده يمنع نفسه عنها فجأة فتتقد شهوته وتهيج هياجاً عنيفاً فيجن جنونه، إنه يستمتع

بإبقاء شهوته للحبيب على هذه الحال لا تستقر ولا تهدأ، يدغدغها ويداعبها ويؤملها بإشباع يحرمها منه كلما شعرت أنها على وشك الظفر به. فأين حقيقة الحب العذري من مزاعم الدكتور خليف ومن يرون رأيه الذين يقولون ان الحب العذري يحقق متعة الروح ورضا النفس واستقرار العاطفة؟ وإذا ذكرنا مرة أخرى ما قاله توفيق الحكيم عن مونمارتر:

"شبعتُ من الأجساد . . شبعتُ من الأجساد
هذه الصيحة انطلقت من فمي يوماً . . . كما انطلقت
من فم كل فنان في مونمارتر . أرأيت كيف أن
مونمارتر هي في حقيقتها مملكة الروح لا مملكة المادة ."

يتبين لنا أن الحب العذري لم يرتفع إلى مملكة الروح لأن السبيل إليها يمر بمملكة المادة والجسد. والعاشق العذري، يؤجل، بنفسيته المريضة، المرور بمملكة المادة إلى ما لا نهاية فيكون قد فقد بذلك المملكتين معاً.

٥) لاحظنا أن روايات الحب العذري وحكاياته تمجّد الحب خارج نطاق الرابطة الزوجية ولاتؤاخذ العاشقين على حبهما الزاني وتستهزئ بالزوج وترسمه على صورة لا تحببه إلى قلوب المستمعين. كما أنها تروي لنا أخبار أفعال وأعمال تخالف جميع الأعراف والتقاليد السائدة وتمزق القيم الأخلاقية المعمول بها وتناقض المؤسسات الاجتماعية المستقرة. وعلى الرغم من ذلك كله نجد أنفسنا منساقين دوماً مع تيار هذه الروايات والقصص؛ نعطف على العاشقين ونشاركهما في التجربة ونتعصب لهما ضد الزوج المخدوع أو الأب الذي يتمسك بالتقاليد والقيم ويصرّ عليها، فيبدو قاسياً وفظاً، كما نكره الوشاة مع أنهم يغارون على العرض والأخلاق الحميدة ويبغون وضع حدٍّ لغيٍّ العاشقين واندفاعهما في

مـهـاوي الـعـشق وتحـدي التـقـاليـد الـعريقـة. لماذا نقف هذا الموقف من حكايات الحب العـذري ورواياته مع أننا لا ننصح أحداً على السـيـر في ركـاب هؤلاء العـشـاق وعـلمـاً بأننا ندين بـالولاء، في حيـاتنا العـادية، لجميع القيم والمؤسسات والأخلاق التي يعـترض عليها العشاق العذريون بأقـوالهم وأفـعـالهم ويخـرقـونهـا في الصـمـيم؟ الجـواب بسـيط جداً: إننا نسـاق مع هذه القـصص والحكايات بدون وعي وإدراك منًا لأنها تـشكل تعويضاً، على مستوى الخيال، لعنصر العاطفة المتوهجة الذي نفقده في حياتنا المنتظمة الرتيبة تحت ضغط القيود المفروضة علينا لكبت نزعات الحب والعشق الدفينة في النفس الإنسانية. قصة الحب العذري، ليست إلاَّ بديلاً خياليـاً لما تتوق إليـه النفس من حرارة وحدّة وانفعـال في الحب في وجه تقاليد القمع العاطفي السائدة في المجتمع.

إن عدّ الحب العذري ظاهرة مرضيـة في أساسها لا يعني بأننا نريد الحطّ من شأنه التـاريخي أو الإنزال من أهمـيـة الأدب الذي نتج حـوله وبسببه. ولا ريب أن العشاق العـذريين الكبـار (بمن فـيـهم العـاشـقات) كانوا ذوي شخصيات فذّة ومواهب كبيرة. وأريد الآن أن أتتبع بإيجاز الظاهرة التي تنتج عندما ينحدر الحب العذري في المجتمع، وخاصة في مـجتـمع الكبت العاطفي والغرامي، ليـقع في أيدي أشبـاه العـشـاق أو العشاق الدونكيشوتيين كما سأدعوهم في بقية هذا البحث.

اشتـهـر الحبّ العـذري على لسـان الرواة والشـعـراء والكتّـاب الذين وصفوه وحددوا خصائصه حتى اكتسب نوعاً من الوجود المجرد كفكرة نعلم عنها الكثير قبل أن نكون قد ذقنا طعم الحب بالمعـاناة أو عـرفنا مـعناه بالتـجربة الحيّـة. ومن النتـائج التي يؤدي إليـهـا هذا الوضع ذلك الشـاب، (أو تلك الشابة) المرشح لأن يكون عـاشقـاً دونكيشوتيـاً، الذي

يتقمص شيئاً فشيئاً هذه الصورة المسبقة لمعنى الحب، ويسمح لها أن تتغلغل في قلبه وتتحكم في حركاته وسلوكه ومخيلته وأحلامه. فعوضاً عن أن يكون الحب، بالنسبة إليه، نابعاً من القاع، أي من قاع القلب بكل عفويته وتدفقه وتلقائيته، يصبح مفروضاً عليه من الأعلى حيث ينصب صاحبنا في قالب جاهز مهيأ ورثه كما ورث مجموع أفكاره وردود فعله وأخلاقه من الأجيال السابقة.

لذلك نلاحظ بدون أي عناء، شبهاً آلياً ومضحكاً بين طرائق الحب التي يمارسها أشباه العشاق لأنهم يضعون موضع التجربة والتنفيذ (بدون وعي وإدراك منهم) فكرة مجردة مسبقة عن الحب بدلاً من أن يسيروا على هدى ما تمليه عليهم عواطفهم التلقائية بعفويتها وبساطتها كما يفعل العشاق الأصليون دوماً، عذريين كانوا أم لم يكونوا. ومن الصفات التي يتلبس بها العشاق الدونكيشوتيون -وخاصة في مجتمع يسوده الكبت الشديد- أنهم لا يقعون في الحب والهيام حين تسوق الأقدار الإنسانة المناسبة لهم ولميولهم، بل يخرجون خفية، هائمين على وجوههم يبحثون عن شخص يعشقونه، لذلك كان بإمكان أية فتاة تقريباً أن تكون موضوعاً مناسباً لحبهم وهيامهم حتى بدون علم منها. وبطبيعة الحال إنهم يرفضون إعلامها بما يجيش في صدورهم، إن كانت على غير دراية بذلك إمعاناً في تعقيد الأمور وفي استكمال صورة العاشق المعذب المتألم في مخيلتهم المريضة. فهم مستعدون للتعلق بالفتاة الرشيقة التي ألقت عليهم التحية من دون قصد، أو أن يهيموا بالطالبة الرياضية في الجامعة، أو أن يولعوا بتلك الفتاة التي راقصتهم مرة أو مرتين في إحدى الحفلات. إنهم عاجزون، في الحقيقة، عن التمييز بين الحب الذي يصرّ بطبيعته على الاختيار والانتقاء وبين شهوتهم المكبوتة التي لا تطلب

سوى الإشباع فحسب. ولذلك نرى أن المرأة صاحبة الحس المرهف والنظرة النافذة لاترتاح للعاشق الدونكيشوتي حين تكشفه على حقيقته، إنها لا تعترض عليه لأنه يرغب امتلاكها جسدياً فهذا ميل طبيعي، ولكنها تعترض عليه لأنه غير قادر على أن يرى فيها سوى موضوع صالح لإشباع هذه الرغبة، ولأنه عاجز، بوضعه الحالي، عن أن يتعرف على صفاتها وخصالها الأخرى التي تعتز بها وتفخر.

ومن خصائص العاشق الدونكيشوتي أنه يبني في مخيلته مخططاً استراتيجياً محكماً فيه المبادئ والمقدمات والنتائج والحسابات الدقيقة للتراجعات بغية غزو قلب الحبيبة التي خرج هائماً على وجهه يبحث عنها. فيطوف بدارها ويفرح إن هو رأى من رآها، وإن ساعده الحظ وظفر منها بمجلس أنشد لها الأشعار وأكثر من استعمال التشبيهات والاستعارات إلى آخر ذلك مما هو معروف لدى الجميع في هذا النوع من العشق الذي يستمر على هذا المنوال لفترة قد تتراوح بين ثلاث وخمس سنوات ملؤها الرسائل والمعاناة والشكوى والمواعيد ومناجاة الطبيعة وتأمل النجوم على طريقة "تحت ظلال الزيزفون" و"غادة الكاميليا". قدم لنا نزار المؤيد العظم مثالاً عن العاشق الدونكيشوتي في شخصية بطل روايته "سلاسل الماضي". كان البطل:

" . . . ينصرف عنها مطرقاً غير مقتنع، ليتمدد على فراشه، في ساحة البيت، ليالي الصيف الآبت، مستقبلاً قمة السماء، متأملاً كواكب الله، منطلقاً بذهنه الواهي إلى المجهول، يستلهم منه تفسيراً، يسدّ به سغبه إلى المحبة."(٧٤)

---

(٧٤) "سلاسل الماضي"، دمشق، ١٩٦٤، ص١٠ .

وفيما يلي وصف لمزاجه العاطفي وللمثيرات التي تحركه:

"وبينما كان ذات يوم ، يمرح عبر أحد بساتين الشريعة ، استرعى انتباهه عصفوران ، ذكر ، وأنثى ، يتغازلان بوجد ساذج ، فوق غصن مرصع بزهر الدرّاق ، بجوار عش صغير ، تتطاول منه رؤوس دقيقة لفراخ ترسل زقزقات واهية . سرّه المشهد وأضرم عواطفه ، وفتّق قريحته عن معانٍ بهية ، ارتسمت كلماتها أمام ناظريه بأحرف من نور ، واتخذت طريقها إلى شفتيه ، تتراقص فوقهما ، بوحاً هامساً ."(٧٥)

وهنا "نثر" البطل شعراً عن آدم وحواء والحب والألم والشقاء، ولن أطيل على القارى بإعادة ذكره.

لا غرابة إذن أن يفضل العاشق الدونكيشوتي صورة الحبيبة في مخيلته على النظر إليها أو التحديق في عينيها مباشرة. وكلما أمعن في هذا الاتجاه ومدح الحب ورفع من شأنه أصبح أكثر خجلاً ووجلاً وحيرة في حضرة النساء وخاصة الفاتنات منهن والمعشوقات. لذلك يفضل العاشق الدونكيشوتي صحبة المرأة الخجولة الساذجة الجاهلة بأمور الدنيا والمجتمع لأنها لا تشكل تحدياً مباشراً له ولا يضطر للتنافس مع الآخرين، بصورة مكشوفة، لكسب ودها وعواطفها إلى جانبه، بينما تجده يتوق في قرارة نفسه إلى صورة أخرى رسمها في مخيلته عن المرأة

---

(٧٥) المرجع السابق ، ص١٩ .

الفاتنة الغانية اللعوب التي تسلبه رشده وتستحوذ على قلبه وتنقله من عالم إلى عالم. ولكن إن هو واجه يوماً مثل هذه الفتاة بلحمها ودمها خاف وابتعد وخلق لنفسه مئات الأعذار ليبرر انسحابه. إنه ليس أهلاً للتحدي العاطفي الذي تمثله الفاتنة حسب ظنه. لا عجب إذن إن تشبّثَ العشاق الدونكيشوتيون بالحب العذري ووقعوا باستمرار في غرام نساء يتعذر الوصول إليهن لأسباب عديدة فيستمتعون عندئذ بالمأساة.

تكتسب عاطفة الكبرياء أهمية خطيرة في نفس العاشق الدونكيشوتي وحياته مما يجعله يحجم عن التعبير التلقائي العفوي عن مشاعره نحو فتاة تهمه خوفاً من صدّها له أو رفضها لطلبه لأنه لا ينظر إلى جوابها السلبي على أنه ممارسة لحق من حقوقها، بل يعدّه جرحاً لكبريائه ومساً بكرامته ورجولته. وهو يفضل، بصورة عامة، ألاّ يخاطر بالطلب أصلاً، بالرغم من رغبته القوية لأن يطلب منها مراقصته مثلاً، لئلا يتلقى جواباً بالنفي يعدّه ماساً بكبريائه. ويجد هذا العاشق نفسه في أقصى حالات البلبلة والعجز والحيرة والخجل حين يواجه امرأة تأخذ هي زمام المبادرة العاطفية في التقرب إليه ومغازلته والتعبير عن عواطفها نحوه فينسحب من أرض المعركة بسرعة متذرعاً بألف حجة محافظة منه على كبريائه بينه وبين نفسه وأمام الآخرين.

أما المثال الأعلى الذي يتصوره في ذهنه المريض فهو امرأة فاتنة فائقة الحسن والجمال ولكنها نائمة نوماً عميقاً أو واقعة تحت تأثير مخدّر قوي فيأتي هو ليطارحها الحب والغرام وهي على هذه الحال، تجهل أمر حبه وغرامه. بعبارة أخرى، يرفض العاشق الدونكيشوتي في أعماقه المحبوبة باعتبارها شخصية حيّة ذات حضور، لها ملء الحق بالرفض أو القبول، بالتمنّع أو الاستسلام، ليحل محلها دميةٌ جميلةٌ تناسب نفسه

التي ترفض الحياة. ومع ذلك يتبجح العاشق الدونكيشوتي بين أصدقائه بمغامراته العاطفية وفتوحاته الغرامية التي يكون قد اخترعها لنفسه كجزء من البديل الخيالي الذي يسعى إليه ليعوض عن عجزه في تحقيق ما تتوق إليه كل نفس بشرية فيها مسحةٌ من الرقة والإنسانية.

خواطر أخيرة

تبين لنا من مجرى هذه الدراسة أن تحقيق الحل المثالي لمفارقة الحب مستحيل بالنسبة للإنسان مادام كائناً يحيا ضمن نطاق الزمان والصيرورة، وكل إنسان يعي الإشكال الذي ينطوي عليه الحب ويدرك أهميته وطبيعته يعرف بأن عليه أن يواجهه، في نهاية الأمر، منفرداً وحيداً، وأن إيجاد الصيغ الملائمة لنفسه في التعايش مع المفارقة التي يعاني من تعارض أطرافها لا يمكن أن يقع إلا على عاتقه وحده، لا ينفعه في ذلك نصحَ صديق ولا معونةُ رفيق عندما تحين ساعات الاختيار الحاسمة. هذا من الناحية النفسية والشخصية الخالصة. ولكننا رأينا أيضاً أن مشكلة الحب تنطوي على بعْد اجتماعي خطير، ويبدو لي أن التبدلات الجذرية التي طرأت على المجتمعات التقليدية الراكدة تسير، بصورة عامة، في اتجاه يخفف من حدة التوتر والصدام بين طرفي الإشكال الذي ينطوي عليه الحب الأمر الذي يؤدي إلى تسهيل مهمة الفرد في مواجهة المفارقة وابتكار الصيغ الملائمة للتعايش معها، والتخفيف من تعقيداتها، والحدّ من حالات الألم والشقاء والسقم النفسي التي ترافقها.

تتصف الاتجاهات العصرية التي تؤثر في المجتمع التقليدي اليوم وتفكّك نسيجه الرثّ بالعلمانية والنظرة الموضوعية العلمية إلى الكون

والإنسان والحياة، والتحرّر من الآراء الدينية والأخلاقية والاجتماعية المسبقة التي ورثناها من عهودٍ مضت وعصورٍ اندثرت. وتنزع هذه الاتجاهات والقوى نحو تخفيف القيود العتيقة المفروضة على العواطف المكبوتة في الفرد وعلى رغباته في إرضاء نوازعه في الحب والعشق بعفويتها وتلقائيتها، وفقاً لمشيئة العاشق واختياره وبدون الاضطرار إلى اللجوء إلى التمويه الاجتماعي والتعويض المريض على مستوى الخيال والوهم والحلم.

ولكن عدداً وفيراً من المعلّقين والوعّاظ من حماة الأوضاع الاجتماعية الموروثة، مازالوا يندّدون بهذه الاتجاهات العصرية التحررية لأنها تؤدي، بالنسبة إليهم، إلى ما يسمونه بالانحلال الأخلاقي، وتفشي الفساد، والركض وراء الشهوات وتفسخ الحياة العائلية وضياع العفة والطهارة والشرف إلى آخر هذه المعزوفة المعروفة التي تدعونا لأن ندير أنظارنا إلى الوراء لنستلهم عصراً ذهبياً، يفترض هؤلاء الوعاظ وجوده في الماضي ويزعمون أن القيم الرفيعة كافة كانت سائدة فيه. أما نحن فإننا ننظر إلى هذه الاتجاهات والقوى العصرية الفاعلة على أنها قد حققت، أو هي في طريقها إلى تحقيق، ثلاث غايات رئيسية:

١) خلق أوضاع اقتصادية واجتماعية جديدة تؤدي إلى تحرير العواطف والانفعالات والرغبات المكبوتة في الفرد من أغلالها التقليدية، والاعتراف بحقّها في الاكتفاء بصورة مقبولة وملائمة لها. ويشكّل هذا الاتجاه، في حقيقته، ثورةً من قبل نوازع الاشتداد في الحب على شريعة الامتداد الكلاسيكية التي سادت في المجتمعات وتسلطت على الفرد ونوازعه في سبيل الاستقرار والاستمرار في حياة الجماعة.

٢) تحرير جسم الإنسان (وخاصة من الناحية الجنسية) من النظرة التقليدية التي كانت تربطه دوماً بالخطيئة والزلّة والتهلكة والشهوة الحيوانية، وتحرير نظرتنا إليه من مفاهيم العيب والعار والحرام وإبدالها بنظرة موضوعية علمانية تعتبر الجسد شيئاً من الأشياء الموجودة في الكون له مميزاته من جمال وقبح، ومن كمال ونقص، من رغبات جنسية من جهة، وفكرية وفنية رفيعة من جهة ثانية. ولا يتصف الجسد، على هذا الأساس، بأية صفات تدعو الإنسان للخجل من أجزاء جسده أو للحياء بسبب أعضائه ووظائفه الطبيعية المعروفة أو لازدرائه والاستهزاء به. ليس في النظر إلى الجسم الإنساني وأعضائه ووظائفه ما يعيب أو يشين على الإطلاق حتى نعمل جاهدين على دفنه وستره وإخفائه متخطّين بذلك حدود ما تطلبه السلامة والوقاية والعافية وكأننا أمام فضيحة كبرى نريد سترها وعدم انتشارها!

٣) تحرير الرابطة الزوجية من قيودها التقليدية وارتباطاتها الاقتصادية والاجتماعية والعشائرية والاتجاه بها من مؤسسة خاضعة في كل تفاصيلها للعرف الاجتماعي وشريعة الامتداد إلى علاقة لا تقوم إلا على أساس الاختيار الحر والمتكافئ بين الطرفين المعنيين في الشروع بالعلاقة أو الاستمرار بها أو إنهائها. وتفترض هذه الخطوة تحرير المرأة من الاستعباد التقليدي الذي لحق بها وإقرار حقها كاملاً ليس في مجرد القبول أو الرفض أمام من يختارونها وإنما في اختيار سبيل حياتها العاطفية والغرامية والاجتماعية والإنتاجية في المجتمع الحديث وفقاً لمواهبها وثقافتها وميولها.

لا شكّ أن الأسرة، بمعناها الموسّع، تشكل الخلية الأساسية في نسيج المجتمع التقليدي وترتبط ارتباطاً وثيقاً بأنماط الإنتاج السائدة والعلاقات الاقتصادية والأوضاع الاجتماعية القائمة فيه. كانت الأسرة توفر الحماية لأفرادها ولممتلكاتهم ومتاعهم، وتحمل مسؤولية إعالة الأطفال والنساء والمرضى والشيوخ ممن ينتمون إليها، وتتكفل بتأمين حاجات أفرادها من ملبس ومأكل ومشرب ودواء الخ.. وكانت سيادة الرجل في نظام الأسرة هي الركن الأساسي في تسييرها واستمرارها. وتأثرت العلاقات العاطفية بين الإنسان والإنسان بعاملين أوليين في هذا النظام: أ) سيادة شريعة الامتداد في الحب وطغيانها على الاعتبارات الأخرى كافة المرتبطة بهذه العاطفة. ب) المكانة الثانوية التي تحتلها المرأة في نظام الأسرة واعتبارها جزءاً من المتاع الذي يجمعه الرجل رمزاً على قوته وسلطان عائلته أو عشيرته.

ويشيد العقاد بهذا النظام القبلي ومكانة المرأة فيه كحوزة يملكها الرجل بقوله:

"لأن "المنعة" ضرورة من ضروريات الحياة بين أهل البادية ، ولا مناص لهم من الاشتهار بمناعة الحوزة بين الأعداء والنظراء ، . . . وأول حوزة يحميها الرجل هي المرأة ."(٧٦)

لذلك نجد أن رابطة الزواج كانت خاضعة لمعاملات ورسميات بين الأسر المقدمة على التناسب تشبه إلى حد كبير المفاوضات الدبلوماسية بين دولتين بكل ما تتصف به هذه المفاوضات من صرامة وشكليات وبرودة.

---

(٧٦) "جميل بثينة" ، ص١٨ .

أمّا الاتجاهات العصرية الفاعلة في المجتمع اليوم فقد استغنت تماماً عن الأسرة كوحدة إنتاجية وأصبح المجتمع بمؤسساته وأجهزته يحمل جميع الأعباء التي كانت تحملها الأسرة في السابق نحو أفرادها. وكلما نضج المجتمع الحديث وتقدم أخذ على عاتقه تأمين العلم والدواء والعناية الصحية لجميع الأفراد، واضطلع بمسؤولية حماية الضعيف والمسنّ والمريض والعاطل واليتيم عن طريق مؤسساته وأجهزته فتتحول بذلك الرابطة الزوجية من فكرة الأسرة كوحدة إنتاجية ومؤسسة اجتماعية إلى رابطة فردية لا تخضع لأي اعتبارات سوى رغبات الطرفين المتحابين في العيش معاً لفترة قد تطول أو تقصر وفقاً لتقديرهما ومشيئتهما. وقد عبرت الكاتبة الروسية ا. م. كولنتاي عن هذا الاتجاه بقولها:

"وعلى أنقاض الأسرة القديمة سنشاهد نشوء نوع جديد من الرابطة العائلية القائمة على صلات بين الرجال والنساء تختلف اختلافاً كاملاً عمّا كانت عليه في السابق . وتقوم الرابطة الجديدة على المحبة والصحبة وتكون بين فردين متساويين من أفراد المجتمع الاشتراكي يتمتع كل منهما بحريته واستقلاله وعمله . وتكون بذلك قد ولّت أيام استعباد المرأة في المنزل وأيام عدم المساواة في الأسرة وأيام قلق المرأة وخوفها من أن تبقى مع صغارها بدون معيل أو معين إن هجرها زوجها . لن تكون المرأة عالة على زوجها بعد اليوم في المجتمع

الاشتراكي ، لأن معيلها لن يكون حينئذ زوجها
بل ذراعاها القويتان ."(٧٧)

بعبارة أدقّ تتحول الرابطة الزوجية إلى علاقة مرنة تدوم ما دام الحب بين الطرفين وتنفك بزواله فتتاح بذلك فرصة للطرفين المتحابين للتمتع بشيء من الاستقرار والهدوء والاستمرار في علاقاتهما الغرامية ولكن بدون أن تتحول هذه العلاقات إلى إلزام إجتماعي وضرورة اقتصادية نحو الآخرين فتفقد بذلك حيويتها وتلقائيتها. كما توفر مرونة الرابطة بعض الاكتفاء لنزعات الاشتداد في الحب لأنها لا تفرض دوام الرابطة بعد شحوب الحب وانحلاله مع مرّ الأيام وبعد استئثار السأم والملل بحياة الزوجين المعنيين، كما تسمح لكل منهما بالبحث عن الوسائل التي يعدها كفيلةً، من وجهة نظره، بتجديد مشاعره الغرامية وبعث أحاسيسه وانفعالاته من جديد ليغذي بها نزعة جوهرية من نزعات نفسه وحياته الداخلية. كتب فريدريك انجلز الأسطر التالية في وصف ما يجب أن تكون عليه الرابطة الزوجية في رؤياه للمجتمع العصري الاشتراكي الناضج، المتحرّر من علاقات الاستغلال الاقتصادي ومن قيود الكبت والقمع الدينية والأخلاقية والاجتماعية، قال:

"لأنه إذا كانت الزيجات المبنية على الحب
وحدها أخلاقية لا مفر من القول بالمقابل إن
الزيجات الأخلاقية هي فقط تلك التي يدوم فيها
الحب ؛ وبما أن مدة دوام دافع الحب الجنسي

---

(٧٧) "Excerpts from the Works of A. M. Kollontay", The Family in the USSR," ed, R. Schleisinger, Kegan Paul, London, 1949, ص٦٧.

لدى الناس تختلف كثيراً باختلاف الأفراد ، ولا سيما الرجال ، يصبح الانفصال نعمة لكلا الطرفين وللمجتمع عند نضوب الحب أو حلول حب قوي جديد محله ."

وقد وصف انجلز الحياة العاطفية التي سيستمتع بها الجيل الجديد في رؤياه للمجتمع التقدمي القائم على العمل الجديد والعلم والتكنيك والمساواة بالكلمات التالية:

"جيل من الرجال الذين لم يضطروا في يوم من أيام حياتهم لأن يبتاعوا استسلام امرأة سواء بالمال أو بأية وسيلة أخرى من وسائل النفوذ الاجتماعي . وجيل من النساء اللواتي لم يضطررن قط للاستسلام لأي رجل تحت تأثير أي اعتبار غير اعتبار الحب الحقيقي ، أو للاحجام عن وهب أنفسهن لمن يحببن خشية العواقب الاقتصادية (المترتبة على فعلهن) . عندما يظهر ناس من هذا القبيل لن يبالوا أبداً بما نحسب اليوم أنه ينبغي عليهم أن يفعلوه . سوف يحددون لأنفسهم السيرة الخاصة بهم ويخلقون رأيهم العام الذي يلائم سيرة كل فرد منهم -وهذا كل ما يمكن أن يقال في هذا الموضوع ."(٧٨)

---

(٧٨) "The Origin of the Family, Private Property and the State", Marx and Engels Selected Works, vol. II, Foreign Languages Publishing House, Moscow, 1955, ص٢٤٠


https://telegram.me/maktabatbaghdad

المراجع المذكورة في البحث

مراجع عربية

ابراهيم المصري، "تاريخ الحب ورسائله الخالدة"، كتاب الهلال، القاهرة، ١٩٦٣.

ابن الجوزي، "ذم الهوى"، تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٦٢ .

ابن حزم، "طوق الحمامة"، تحقيق الأستاذ حسن كامل الصيرفي، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٦٤ .

ابن قيم الجوزية، "روضة المحبين ونزهة المشتاقين"، تحقيق أحمد عبيد، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٩٥٦ .

ابن المقفع، "الأدب الكبير والأدب الصغير"، مكتبة البيان، بيروت، ١٩٦٠ .

أبو بكر السراج، "مصارع العشاق"، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ١٩٥٦، ج١.

الجاحظ، رسالة "في القيان"، "ثلاث رسائل للجاحظ"، تحقيق فينكل، القاهرة، ١٣٤٤هـ.

"الرسالة القشيرية".

الطبري، "تفسير القرآن"، المطبعة الميمنية بمصر، ج٤، الجزء الثاني عشر.

صلاح الدين المنجد، "الحياة الجنسية عند العرب"، بيروت، ١٩٥٨ .

عباس محمود العقاد، "جميل بثينة"، دار المعارف بمصر، سلسلة اقرأ، الطبعة الثالثة (التاريخ غير مذكور).

عباس محمود العقاد، "المرأة في القرآن"، دار الهلال، القاهرة (التاريخ غير مذكور).

فردريك انجلز، "الأسرة والملكية الخاصة والدولة"، تعريب أديب يوسف، دار الفارابي، بيروت، ١٩٥٨ .

موسى سليمان، "الحب العذري"، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٤ .

نزار المؤيد العظم، "سلاسل الماضي"، دمشق ١٩٦٤ .

يوسف خليف، "الحب المثالي عند العرب"، دار المعارف بمصر، سلسلة اقرأ ١٩٦١ .

مراجع أجنبية

Anshen, R.N. (ed), The Family its Function and Destiny, Harper Brothers, New York, 1949.

Benois, Hubert, De L'Amour, Paris, 1952.

Corneille, P., La Place Royale.

Engels, F .,"The Origin of the Family, Private Property and the State" , Marx and Engels Selected Works, Vol. II, Foreign Languages Publishing House, Moscow, 1955.

Gasset, Ortega Y., On Love, Meridian Books, New York, 1958.

Goncourt de, E & J., Les Femmes au XVIIIe. Siècle, Paris, 1864.

Hunt, M. M., The Natural History of Love, Grove Press, New York, 1959.

Kollontay, A. M., "Excerpts from Her Works", The Family in the USSR, ed. R. Schleisinger, Kegan-Paul, London, 1949.

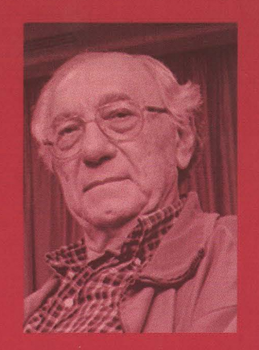
Mann, Thomas, "Death in Venice", Great German Short Novels and Stories, Modern Library, New York, 1952.

Molière, Don Juan.

Rougement de, Denis, Love in the Western World, Anchor Books, Garden City, New York, 1957.

الفهرس


https://telegram.me/maktabatbaghdad



صادق جلال العظم المولود بدمشق سنة ١٩٣٤ هو مفكر و أستاذ فخري بجامعة دمشق في الفلسفة الأوروبية الحديثة.

درس الفلسفة في الجامعة الأميركية، وتابع تعليمه في جامعة يال بالولايات المتحدة. عمل أستاذاً جامعياً في الولايات المتحدة قبل أن يعود إلى سوريا ليعمل أستاذاً في جامعة دمشق. ومن بعدها انتقل للتدريس في الجامعة الأميركية في بيروت بين ١٩٦٣ و١٩٦٨. وأصبح سنة ١٩٦٩ رئيس تحرير مجلة الدراسات العربية التي تصدر في بيروت.

قبل هذا الكتاب، كان العشّاق العذريون في تصوّرنا أنقياء كالملائكة، معصومين كالقدّيسين.ويأتي صادق جلال العظم في هذا الكتاب ليمزّق القناع عن وجوه العشّاق العذريين، وليكشف بالمنطق والفكر الفلسفي العميق، أنهم كانوا في حقيقتهم نرجسيين وشهوانيين...

نزار قباني

لوحة الغلاف : مارك شاغال

